القاضي

على مسرح الحياة

DATE DUE

892.78
G254Yaf
v.1

طه محمد القاضي

# على مسرح الحياة

## الجزء الاول

الطبعة الاولى
١٣٧٢ - ١٩٥٣
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

المكتب التجاري
للطباعة والتوزيع والنشر

Cat. Feb. 19, 54

# للمؤلف

١ ـ الحب والجمـــال

٢ ـ احاديث الامسيـــات

٣ ـ على مسرح الحيـــاة ... ... ... الجزء الاول

٤ ـ مصرع العدالة ... ... ... تحت الطبـع

٥ ـ مراحل النثر القديم ... ... ... جاهز للطبع

رسم المؤلف

# اهداء الكتاب

**الى قبس النور . . .**

الى عروس شعري وموسيقى حياتي ، الى انشودة حبي ومصدر سعادتي ، الى من هي ارق من بدر السماء محاسناً ، الى من صفحة المرآة كوجهها صفاءً وتلألؤاً ، الى من يندلع السحر من محياها المبارك ، ويعمر الحب الطاهر قلبها المقدس الى معدن الجمال وموئل القدسية ، الى ام الفضائل الانسانية الى ذلك الينبوع الصافي والمنهل العذب الى من هي انقى من قضيب اللجين وأسمى من كل انسان الى من يزخر صدرها بالايمان الراسخ والعقيدة التي لا تتزعزع الى مأوى الحب ومصدر العطف والحنان الى من تتجلى في شخصها اسمى المثل العليا والخصال النبيلة ، الى نبراس النور الذي يستضاء به في الأولى والآخرة الى من جنة الفردوس تحت قدميها ، الى من ذللت لي الصعوبات ووقتني شر الخطوب المدلهمة ، الى من ، من اجلي عانت اشد الآلام وقاست امر العذاب ، الى من صحبتني مراراً في الذهاب والاياب ، من الكتاب الى البيت ، الى من انارت لي السبيل وارضعتني مزية الاعتماد على النفس ، الى من ولدت في صدري الطموح ، وغرست في نفسي الأباء والشمم ، الى من عودتني الصدق والصراحة وكثيراً ما رددت على مسامعي «ان خير صديق في الزمان الكتاب» الى من هي اشهى من ماء الورد ، واحلى من رحيق

الكأس واطيب من عبير المسك الى تلك الزهرة الفواحة التي عطرت بحياي باريجها، الى من جرعتني الامل بعد اليأس الى من روحها روحي وروحي روحها الى بلسم جراحي ومهبط وحي ودنيا هيامي الى زهرة شبابي وفكرة رأسي وقوة ساعدي وخلجات فؤادي الى من انا فلذة من كبدها ونفحة من عطرها .

أنت لي وانا لك وكلانا لبعض فانت الروح وأنا الجسد ، وانت النبض وأنا الجنان الى مرشدتي الى الحق ومنقذتي من الضلال الى المدرسة الاولى والمعلم الافضل الى ملاك الرحمة ورسول السلام .

الى من حملتني بين احشائها جنيناً وعلى ذراعيها وليداً وبين احضانها طفلا الى من لن انساها مدى الحياة وعلى مر الدهور الى امي الرؤوم .

فلذة كبدك البار
المؤلف

ذو الحجة ١٣٧٢ آب ١٩٥٣

# مقدمة الكتاب

أيها القاريء الكريم :

ليست قصة تاريخ حياتي قصة ( على مسرح الحياة ) من محض الخيال ولكنها من صميم الحقيقة املاها علي الزمان . وسطرها الي الانسان . فكتبتها في سجل الحياة بؤساً . وشقاء . وقنوطاً من بني الانسان . وتبرماً بالزمان المتقلب الذي اضطرني الى مداراة اللئام وارغمني على مجاراة الاشرار في ما يقترفون من شرور . وما يرتكبون من آثام وما يأتون من ضروب الفجور والعصيان .

كتبتها بعد ان اذاقتني الحياه صنوفاً من الآلام وضروبا من العذاب وبعد ان عضني الدهر بنيابه العطبة وخيم على هامتي كلكل البؤس والشقاء .

تأثرت وهاجت اشجاني ، وتحركت اوتار قلبي وثارت عواطفي حين سمعت انين المساكين في سكون الليل البهيم . فتألمت وبكيت و كتبت قصتي بدموع العين الغزيرة ودم القلب القاني . وخطتها براعتي سطوراً تطرب لها النفوس الحزينة وتنتعش لها الارواح الشجية صهرت فيها روحي الرقيقة الكئيبة . ونفسي المتألمة الحزينة وضعت فيها مشاعري واحساساتي وعواطفي الرقيقة كتبتها وانا اتخبط على مسرح الحياة خبط عشواء بين البؤس والشقاء . والآلام والعذاب . نظرت الى الوجود من

خلال اللانهاية فعرفت معنى الوجود وبعد ترو قليل ونظر صائب حكيم ادركت سر الخلود واللانهاية واعاجيب الكون واسرار الحيـــاة ـ عانيت آلام البؤس والشقاء الشديدة المريرة ورأيت دموع البائسات والبائسين وسمعت انين المحرومات والمحرومين . وشعرت بالآلام التي تعانيها النفوس المعذبة والقلوب الحزينـــة والارواح التعيسة . وسمعت تنهدات وزفرات العشاق والعاشقات وتاوهات المظلومين والمظلومات فهالني ما رأيته وحطم قلبي مـا سمعته ولمسته فكتبت قصة تاريخ حياتي .

## قصة « على مسرح الحياة »

كتبت قصة تاريخ حياتي من نموجـــات الأثير وحفيف الاغصان . وخرير المياه ودغدغة النسيم واغاريد البلابل الجذلة وزقزقة العصافير الطروبة ، اظلمت الدنيا في وجهي ، وانصبت علي الغصص وتوالت علي الكوارث فاطعمتني من غسلين . وسقتني من الحميم واذاقتني مر العلقـــم وهول الجحيم . مثلتها على مسرح الحياة برباطة جأش ، وطول صبر وجلد ، وامتطيت سفينة الحياة وسرت الى حيث لا أدري فنهلت مـــن اليسر قليلا ومن العسر كثيرا ، وحظيت بالسعادة حيناً وبالتعاسة احيانا ، واغترفت من نمير الافراح فـترة . ومن نمير الاتراح فـــترات . رضخت الى تصرفات الدهر وتقلبات الايام فتألمت ، وكتبت قصتي بالالم وبكيت فكتبتها بالدموع ويئست فسطرتها باليأس والملل .
تلبدت غيوم جو حياتي ، فأظلم الكون في وجهي وسئمت الحياة

كتبتها من النور الساطع بعد الظلام الحالك ، ومن الرحيق الحلو والشهد العذب بعد الحميم ، والعلقم المر والجحيم المستعر . كتبتها من الايمان الوطيد ، والعزم الشديد والطموح الذي يتأجج في صدري ومزية الاعتماد على النفس التي بدلت اليأس رجاء ، والجحيم نعيما والمحال يقينا . والانهزام نصراً مبينا ، كتبتها من الحياة بعد الموت ومن الامل بعد القنوط ومن البزوغ بعد الافول ومن الوجود بعد العدم .

المؤلف
ذو الحجه ١٣٧٢
آب ١٩٥٣

# الفصل الاول

## اليوم المجهـــول

كان صاحبنا ولا يزال يجهل موقع يوم ميلاده من الشهر والسنة إنه لا يذكر ذلك اليوم المجهول الذي قذف به فيه القضاء والقدر الى هذه الدنيـــا . انه لا يذكر ذلك اليوم المشئوم الذي ظهر فيه لاول مرة على مسرح الحياة ليقوم بتمثيل دوره مـــع زمرة الممثلين . في ذلك اليوم ظهر صاحبنا على مسرح الحيـاة ، وفي ذلك الشهر بدأ حياته الجديدة وفي تلك السنة اخذ يعد العدة لتمثيل دوره ولمنافسة اقرانه الذين يقومون بتمثيل ادوارهم المختلفة بكل ما اوتوه من قوة ونشاط . سار صاحبنا مع تيار الحيـــاة الجارف ورضخ الى قضاء الله وتصرفات الدهر . وانطلق يكـــد ويكدح على مسرح الحياة بصحبة اولئك الممثلين . فرأى منهم الممثل الذي اسعده الحظ واصابه التوفيق فلبس الشفوف وأكل ما تشتهيه الانفس وتلذ لرؤيته العيون ، وقطن القصور الفخمـــة المؤثثة باجمل الاثاث والرياش وفيها من كل كماليات الحيـــاة . ورأى منهم الممثل الذي لم يسعده الحظ كثيراً ولم يصبـــه من التوفيق ما اصاب غيره فعانى شدة العسر وحظي برفاهية اليسر وتمتع بلذة الافراح وقاسى الآلام والاتراح وانكفأ مرة ونهض اخرى ونهل من منهلي السعادة والشقاء . ورأى منهم الممثل الذي لم يصبه من الحظ والتوفيق شيئا ، بل اصابه من الكرب والشدة

والضنك والضيق الشيء الكثير فارتدى اخشن الملابس اذا وجدها وقطن الكوخ الحقير في اوقات الحر والكهف المظلم في ايام البرد والزمهرير. رأى صاحبنا هذا الممثل التعس الذي يعود من عمله بعد الغسق ليريح نفسه من عناء النهار فيضطجع على فراشه البسيط ولكن الكرى لا يزور عينيه وعيني زوجته الارقه من شدة البرد والطوى، ومن شدة الالم الذي يحز في نفسه ونفس زوجته عندما يسمعان انين بنيهما وتلهفهم على كسرة خبز وكوب حساء وغطاء يقيهم غائلة البرد الشديد، ويدعو صاحبنا يوم ميلاده تارة اليوم المجهول لانه يجهله وقد اعيته معرفة ذلك اليوم ويدعوه تارة اخرى اليوم المشؤوم لانه اليوم الذي أتى فيه الى هذه الحياة مرغماً وهو لا يود المجيء اليها، والظهور على مسرحها لان الشرور والرذائل متأصلة في نفوس ممثليها فمنهم الاناني المحتال الذي فطرت نفسه على الخبث واللؤم ومعظم هؤلاء من الطبقة المثقفة. ومنهم المتواضع الفاضل الذي طبعت نفسه على حب الخير والانسانية وطيب الطوية ونبل الخصال ومن الاحتكاك بأولئك ومعاشرة هؤلاء أدرك صاحبنا ان العلم يزيد النفوس الشريرة شراً وخبثاً ويزيد النفوس الطيبة طيباً وصلاحا. وكذلك ام صاحبنا لا تذكر ذلك اليوم السعيد لانها تمتعت فيه بلذة الأمومة تلك اللذة التي كانت تصبو اليها نفسها منذ نعومة اظفارها. ولا يذكر والد صاحبنا ذلك اليوم، اليوم الذي يدعوه يوم البهجة والسرور وهو

اليوم الذي تمتع فيه بلذة الابوّة التي كان يرنو اليها بفارغ الصبر منذ حداثة سنه وهذا اليوم كما يقول والد صاحبنا كان اسعد يوم في حياته . وكان صاحبنا كثيرا ما يسأل امه عن ذلك اليوم . لان أمهات اترابه في المدرسة يقمن الولائم والاحتفالات ويتحفن بنيهن بالهدايا والهبات في ذلك اليوم وهو الوحيد من بينهم الذي لا يعلم متى ولد ولا يتحفه والده بهدايا ذلك اليوم ولا يقيمون له الولائم وحفلات الشاي كسائر زملائه . كانت ام صاحبنا تجيبه بعطف وحنان وتقول له لا اذكر ذلك اليوم يا بني وكل ما أذكره ان الله من علينا ورزقنا اياك بعد زواجي من ابيك بثلاثة أعوام فيردد صاحبنا على مسامع امه هذا السؤال ويعاتبها لانها لم تسجل اسمه وتاريخ ميلاده في سجلات ادارة الصحة والاحصاء فتقول له امه اعلم يا بني انني وضعتك في العام الثالث الذي مر على زواجي من أبيك وقد جاء في المخاض في يوم من أيام الشتاء الباردة واما لم لم يسجل اسمك وتاريخ ميلادك في سجلات ادارة الصحة والاحصاء فهذا شيء مسؤول عنه والدك ووجهاء القرية ولا سيما المختار . فأعيا صاحبنا السؤال عن ذلك اليوم ولم يتوصل الى ما كانت تصبو اليه نفسه ومنذ بضع سنوات ولما عاد والده من رحلة قام بها الى بيت المقدس ليؤدي صلاة الجمعة في المسجد الاقصى في شهر رمضان المبارك عانقه وطبع الوالد على جبين فلذة كبده قبلة بريئة وما هي الا ثوان حتى بادر صاحبنا وسأل والده متى تزوجت من امي يا ابي فعجب الوالد من هذا السؤال وقبّله

كثيراً ثم قال لصاحبنا كان ذلك العام الذي اندلعت فيه نيران الثورة بيننا وبين اعدائنا اليهود وانصارهم الانجليز . وما كاد الاب يفرغ من كلامه حتى بادره صاحبنا بقوله : هل تذكر يا ابي يوم ميلادي فقال له الوالد لا اذكر ذلك اليوم يا بني ولكنني سابحث عنه في سجلات الحكومة وعبثاً حاول والد صاحبنا العثور على ذلك اليوم ولم يجده البحث عنه فتيلا .

ولما كان صاحبنا على وشك الانتهاء من السنة الدراسية الابتدائية الرابعة املى على زملائه الشيخ صادق شيخ كتاب القرية قصيدة عنوانها «المدرسة لامير الشعراء احمد شوقي بك» وفي هذه الاثناء كان صاحبنا مرهفاً اذنيه لاستماع ما كان يمليه الشيخ ومصغيا الى ما كان ينطق به شيخ الكتاب من شعر ونثر وكانت السطور الاولى التي املاها الشيخ على مسامع تلامذته تتضمن موجز ترجمة امير الشعراء احمد شوقي بك بدأها الشيخ بتحديد تاريخ وفاته . وما كاد الشيخ صادق ينتهي من املاء القصيدة حتى تذكر صاحبنا ما كان يردده على مسامع والديه من اسئلة لمعرفة تاريخ ولادته فاشرأب للكلام . وسأل الشيخ متى كانت الثورة ملتهبة بيننا وبين اليهود . فسر شيخ الكتاب من هذا السؤال واعجب بصاحبنا وربت على كتفه واثنى عليه وقال له : كان ذلك العام يا بني عام تسعة وعشرين وتسعماية والف وهو العام الذي طهرت مدينة خليل الرحمن من اولئك المكرة الخبثاء . ومنذ ذلك الحين لم تطأ ارضها قدم يهودي واستطرد

الشيخ في كلامه عن اليهودية واخذ يقص على مسامع تلاميذه تاريخ اليهود المفعم بالخدع والمكر للأسلام والعرب فقال صاحبنا للشيخ صادق شيخ كتاب القرية « اليس الله الذي خلق السموات والأرض وجميع الكائنات وأسبغ نعمه على المجموعة البشرية دونما تمييز » فقال الشيخ باستغراب « بلى » فرد عليه صاحبنا قائلا : اذا كان الامر كذلك فلماذا نضمر البغضاء نحن العرب ونكن الضغينة والعداوة للانكليز واليهود ونشن عليهم الثورات الدامية فيذهب ضحيتها الشباب الابرياء منا ومنهم فقاطع الشيخ صاحبنا وقال : « انت يا بني لا تزال حديث السن ولا تفقه من امور الدنيا شيئا ، واني انصحك ان تقرأ قصة تاجر البندقية للكاتب وليم شكسبير لترى بنفسك شناعة الخبث اليهودي . ثم قال : « اعلم يا بني ان فلسطين وطننا ووطن أجدادنا ، وليس لهؤلاء اليهود وطن معروف لانهم شعب من الشعوب المغضوب عليها في الدارين فقال صاحبنا « اذا كان لا يوجد لليهود وطنا فأين يذهبون اذا اخرجناهم من بلادنا ؟ واذا أخرجناهم منها ذهبوا الى بلاد غيرها فيخرجهم اهلها منها مرة اخرى . ان الله تعالى أقر بالعدالة ، فهو عز وجل لم يخصص لامة من الامم وطناً خاصاً فبلاد العرب ليست حراماً على الهنود والانجليز ولا على اليهود وكذلك بلاد الانجليز ليست محرمة على العرب واليهود ولا على الزنوج وليست الهند مقصورة على الهنود انفسهم بل هي كسائر اقطار الارض وطن الكل انسان » فاغتاظ الشيخ واشتد حنقه وقال : « انت يا صبي

من ابناء الاسلام ، فالله تعالى امرنا بالجهاد في سبيله لترفع كلمة الاسلام عاليا ويحق لنا ان نحارب هؤلاء اليهود حتى يثوبوا الى رشدهم ويعتنق الاسلام من اراد منهم . فمن لا دين له لا وطن له ومن لا وطن له لا دين له وحب الوطن فريضة على كل مواطن واظن يا صبي ان لا وطن لك ولا دين لك ، وستكون جرثومة في بنيان الاسلام والعروبة اذا قدر لك ان تعمر لا سمح الله ، فقاطع صاحبنا الشيخ وقال اليس المسلمون والنصارى واليهود ابناء آدم وحواء ، قال الشيخ « بـــلى » ثم قال صاحبنا «اليس الله الذي انزل الزبـــور والتوراة والانجيل والقرآن الكريم قال الشيخ بـــلى فانتهز هذه الفرصة صاحبنا وقال : «اذن فلم هذا الخلاف ولم هذا التمييز ولم هذا النزاع الدائم بين بني الانسان فقال الشيخ : هذه يا زنديق سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا . ان الله تعالى انزل الزبور ثم انزل التوراة فنسخت الزبور ثم انزل الانجيل فنسخ التوراة ثم انزل القرآن الكريم فنسخ الانجيل وجاء بالاسلام ولن يكون بعيـــد الاسلام دين فسأل صاحبنا الشيخ وقال كيف يتفق والعدالة الالهية ما نراه مـــن تفاوت بين بني آدم » فقال الشيخ وهو يغلي كالمرجل من الغضب انه جلت قدرته وسمت حكمته لا يسأل عما يفعل ولا تخطر هذه الخواطر الا للملحدين الجاحدين » فتاثر صاحبنا من هذه اللهجة القاسية التي خاطبه الشيخ بها وقال : انك تعلم يا سيدنا الشيـــخ ان الانسانية المعذبة في حاجة الى الاصلاح والطمأنينة واوى ان

نأخذ كل ماهو خير وصلاح وما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من الكتب المنزلة الاربعة فنحسم الخلاف ويسود الارض السلام اذا ما سار الناس بمقتضاه وعملوا بموجبه » فاهتز الشيخ صادق من قمة رأسه الى اخمص قدميه وهاج وازبد وارعد وقال لصاحبنا ازك ملحد يا صبي ولا غرابة في ذلك فسلفك ابـــو العلاء المعري كان ملحدا وبشار بن برد كان زنديقا ، فكأن الله عز وجل عرف ما في نفوسكم ايها العميان فانزل بكم في الدنيـــا اشد العقاب اذ حرمكم نعمة البصر وهو اعلم بما سينزل بكم مـــن عذاب يوم الحشر وقد قال الرسول الكريم : كل ذو عاهة جبار » فرد عليه صاحبنا وقال : ان ذا العاهة جبار في تحمـــل اعباء ما نزل به من مكروه وليس متعجرفا كما تعني يا سيدي الشيخ » ولكن شيخ الكتاب قاطـــع صاحبنا وقال : ان مثلك مثل العنزة الجرباء بين القطيع ومن واجبي كراع لهذا القطيع ان اخرجك من حظيرة الكتاب كي لا يتسرب الوباء منك الى سائر القطيع » .

وفي ذلك اليوم وجد صاحبنا ضالته المنشودة وادرك انه ولد في يوم من ايام شتاء سنة احدى وثلاثين وتسعماية والف . ومنذ ذلك الحين عرف صاحبنا العام الذي اتى فيه الى هذه الدنيا ولكنه لا يزال يجهل ذلك اليوم ولا يزال لا يذكر ذلك الشهر وموقعه من العام الذي خرج فيه صاحبنا من النعيم المقيم الى الجحيم المستعر الذي اصلاه نارا حامية لا تطاق ولا يتحملها الا ذوو الصبر

والجلد الذين تزخر صدورهم بالعزيمة الصادقة والارادة التي لا تذعن الى الصعاب مهما كان نوعها ومهما كانت شديدة بل تثبت امام الكوارث وتجابه الشدائد بكل ما أوتيت من قوة وبأس وتقارع الخطوب املا منها بالفوز في الاولى او الاخرى وايماناً منها بما ورد في كتاب الله العزيز من آي الذكر الحكيم : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » «وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم» « يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا » « فاصبر صبراً جميلاً » .

ومنذ ذلك العام وطوال السنوات الست الاولى من حيـــاة صاحبنا صفا له الجو وافترت له الدنيا عن ابتسامة بريئة من ثغرها الفتان فمتع نفسه بنورها الوضاء وبجمال مناظرها الخلابة ورفل في حلل السرور والهناء في عهد لن ينساه مدى الحياة . انه لن ينسى ذلك العهد الذي تمتع فيه بالرغد والسعادة ان هذا العهد هو اسعد أوقات حياته ، وكيف لا وهو عهد الطفولة البريئة وينبوع النشوة والحبور وما كاد صاحبنا يتجاوز السادسة من سنه حتى اكفهر جو حياته واحتبكت غيومه وانقلب الى مظلة حالكة السواد فقصفت الرعود وهبت الانواء وتكاثفت السحب وعبست الحياة لصاحبنا فداهمته الدهم واستحال فجر حياته الى غروب طويل وتبدل نهاره المنير ليلاً دامساً .

# الفصل الثانى

# البصر المفقود

•

ما كاد صاحبنا يتجاوز الخامسة من عمره ويمشي نحو السادسة حتى أصيب بوباء الجدري الذي أصاب جميع أطفال قريته « قرية صوريف » فمنهم من عاجلته المنون ، فاستراح من عناء الحياة وآلام هذه الدنيا الدنيئة ومنهم من تشوهت خلقته وترقش محياه وعلته حفر واخاديد صغيرة قبيحة ، فصار أعجوبة في نظر من سلم من هذا الداء ، وغدا عرضة لتهكمهم وحديثاً لسخريتهم ، ومبعثاً لهزئهم ، ومنهم اودى من الاطباء بحياتهم ، باذن من الحكومة لكي لا ينتقل المرض من المرضى الى الأصحاء فينتشر في طول البلاد وعرضها ويعم بكلكله جميع احداثها فيفدح الخطب وتعظم المصيبة . هذا ما اصاب القسم الاعظم من اتراب صاحبنا من جراء هذا المرض الخبيث . واما صاحبنا نفسه فقد شاء القدر الا يستل هذا المرض منه الحياة والا يستله منها وأبى ان يشوه خلقته ويرقش محياه . ولم يتمكن الاطباء كذلك من القضاء على حياة صاحبنا ، لان امه الرؤوم أبت ان تعرضه عليهم للمعالجة ولم ترسله الى مستشفيات العيون ضناً منها على حياة فلذة كبدها الوحيد

وبكرها الصغير الذي كان عندها اعز شيء في الوجود بل كل شيء فيه . ولكن ام صاحبنا الساذجة اكتفت بالاعتماد على الوصفات العربية في معالجة عيني طفلها ، وبتمتمة جارتها المشعوذه « الشيخة محبوبة » التي كانت تقضي الساعات الطوال وهي تتمتم وتخرج على رأس صاحبنا . وتحرق البخور بجانبه ، وهي تتلو ما تيسر من آي الذكر الحكيم ، وتستنجد بالرسل الكرام . وبأولياء الله الصالحين المقربين . ولكن تلك الوصفات والتمتمات والاستنجادات لم تأت بفائدة ولم تجد نفعاً ، بل ذهبت هباء منثوراً . وأبى هذا الوباء الشنيع الا ان يسلب صاحبنا اعز شيء في الحياة . واغلى حاسة وهبها الخالق اياه تلك الحاسة التي يميز بواسطتها الجميل من القبيح ، وبها يمتع نفسه بجمال هذا الكون العجيب وبروعة مناظر الطبيعة الخلابة وبها يشق طريقه الى حيث يشاء وانى يريد ، ويفرق بين ظلمات الليل البهيم ، وانوار النهار الساطعة . فعبست الدنيا في وجهه . وكشرت له عن أنيابها العطبة وتكشفت له عن عدو في ثياب صديق ، فكفت يسرى عينيه في أوائل شتاء ست وثلاثين وتسعمائة وألف ، فريعت ام صاحبنا لشدة هول ما حل بها وتحطم قلبها وخارت قواها من حدة الأسى والآلام واخذت تندب حظها وحظ طفلها وكانت لا تجد لها سلوى الا البكاء والنحيب ، حتى ضعفت ونحل جسمها ، واصبحت شبحاً شاحب اللون ، مجعد المحيا ، كسيرة القلب والنفس وكثيراً ما كانت تحمل كميات الشمع والزيت وتذهب بنفسها الى مقام الشيخ حسين القائم في وسط قريتها « قرية صوريف » فتضيء الشمع وسراج الزيت

بيدها . وتقول « يا شيخ حسين يا مبارك رحمك الله وطيب ثراك انت من اولياء الله ومن المقربين اليه اني اتوسل اليك ان ترحمني وتعطف علي وعلى ولدي وان تطلب لابني الشفاء من ربك الرحيم وبعد هذه الأدعية والتوسلات كانت ام صاحبنا تغادر مقام الشيخ حسين بنفس حزينة وقلب كسير واملها في الشفاء كبير ، وعيناها مغرورقتان بالدموع ، قاصدة مقام الشيخ محمد الهدمي تستنجد به وتدعوه لشد أزرها وللأخذ بيدها ، وتطلب منه ما طلبته من الشيخ حسين ثم تعود الى بيتها وتطبع على جبين ابنها صاحبنا قبلة الامومة البريئة واملها كبير في شفائه .

كانت ام صاحبنا من النساء المتدينات ، تؤدي الصلوات الخمس في اوقاتها وكانت تفتح يديها وترفعها نحو السماء في آخر كل صلاة مبتهلة الى الله تعالى قائلة : « لك ربنا العظمة والكبرياء ، تباركت وتعاليت وجلت قدرتك وعظم شأنك وسمت حكمتك اللهم انك مبعث القدرة والعظمة والكرم والاحسان والعطف والحنان ، فارأف بي واشفق علي وارفق بحياتي وخلص فلذة كبدي من هذا الخطر الجسيم ، وقه جميع الاشرار . اللهم انك تعلم ان هذا الطفل اذاقني الامرين وأراني الاهوال والشدائد وأنصب جسدي واتعب ذراعي وحرمني لذة النوم وجعلني فريسة للأفكار والهواجس . اللهم انك تعلم انني حملته بين احشائي جنيناً تسعة اشهر كنت اثناءها خائرة القوى متعبة النفس والجسد انتظر بفارغ الصبر اليوم الذي سأضع فيه هذا الحمل واستقبل مولوداً

كثيراً ما تمنيت وجوده وأنك جات قـــدرتك تعلم انه بكري وانه فلذة كبدي وهو وحيدي وعزيز علي ومحبب الي. اللهم انك تعلم انني وضعته في يوم قارس البرد شديد الانواء والزمهرير وانني كنت أثناء فترة المخاض وبعدها اصارع قوتين عظيمتين، قوة الموت وقوة الحياة واغالب الخواطر التي كانت تخيم على هامتي فتنذرني تارة بموت ولدي وتارة بموتي، واخرى بموتنا الاثنين معاً. اللهم اني اضرع الى عزتك وجلالك بولاء وخشوع راجية ان تنقذ ولدي من شر هذا الداء العضال، وان تحميه من عيون الحساد والحقاد الذين اذا اصاب غيرهم خير وفرح، كان عليهم شراً وترحاً واذا اصابهم شر وحل بهم مكروه تمنوا ان يصيب غيرهم ما حل بهم. اللهم احفظ هذا الطفل البريء من كل شر وابقه سليما من كل آفة ليكون سندا لي ولابيه الذي عانى من اجله بعض ما عانيت وسهر على راحته وتربيته مثلما سهرت، وليكون ذخراً لوطنـــه وفخراً لامته. انك سميع مجيب. كانت شعوذات الشيخة «محبوبة» وتمتماتها وشفاعات الشيخ حسين والشيخ محمد الهدمي هباء منثورا تذروه الرياح. وكانت ابواب السماء مغلقة امـــام توسلات ام صاحبنا وادعيتها. وأبى القضاء الا ان ينفذ مشيئته. فكفت يمنى صاحبنا في اواخر الربيع عام ست وثلاثين وتسعماية والف ميلادية ذلك العام الذي كانت الاحوال فيه في اضطراب شديد مستمر في الديار المقدسة واعلن فيه عرب فلسطين ثورتهم المشهورة عـــلى السلطات الانجليزية المنتدبة واليهود الدخلاء واضرابهم الشهير الذي امتد ستة اشهر ونيف، وهو اطول واشهر اضراب عرف في تاريخ

فلسطين السياسي. وكان والد صاحبنا يعتقد ان الاسباب التي ساعدت وباء الجدري على الذهاب ببصر ولده : اهمال ام صاحبنا واتكالها على الخرافات والشعوذات وتمنعها عن عرض ولدها على الاطباء لمعالجته بالاساليب الطبية الحديثة . ولكن ام صاحبنا لا تقر هذا كله ولا تؤمن به بل تعزو اسباب عمى طفلها الى اشياء غير معقولة وليست من الواقع في شيء وهي ان عينا اصابت صاحبنا عندما ذهب في احد الايام مع ابيه الى المضافة واخذ يملأ جيبه بالسكر الذي كان موضوعاً امام الضيوف ، فقال احد الضيوف : دع يا صبي السكر ، وانصرف الى امك ، فرد عليه صاحبنا وقال : ليس السكر من بيت ابيك ولكنه من بيت أبي . فقهقه الحاضرون كثيراً وسروا من سرعة خاطر هذا الصبي وبشروا والده بمستقبله الزاهر ، وكان من ذوي الوجاهة والجاه والثراء وكذلك كانت زوجته . الا ان تينك الثروتين ذهبتا نتيجة لتبذير والد صاحبنا واسرافه .

# الفصل الثالث

## الطفل الضرير

كان صاحبنا يرى نفسه سجيناً مقيداً بسلاسل من حديد ، ويشعر انه عبد مهان . وكان قلبه على وشك الانفجار من شدة الغيظ والالم اللذين الما به على اثر فقدانه لبصره ، وغور يسرى عينه في رأسه. وكان من بواعث النقمة في نفسه وايغار صدره على امه وابيه واهل بيته ، ان حرمت امه الحنون عليه الخروج من عقر

دارها اشفاقاً منها عليه . وحرصاً على سلامته ولكن صاحبنا كان لا يجد له سلوى وهو قابع بين جدران سجنه .

الا شتم امه ورميها بالحجارة اذا وجدها في ساحة الدار. وكان يمطرها بوابل من قطع الخشب التي كانت معدة للوقود، اذا سعى وراء الحجارة ولم يعثر عليها . وكانت ام صاحبنا الكئيبة تتحمل كل تلك الشتائم وتلك الضربات بصبر وجلد يمازجهما ألم وأسى . وفي كل حين كانت ام صاحبنا تضمه الى صدرها بعطف وبشاشة وتطبع على محياه قبلة الامومة البريئة وتردعه عن رميها بالحجارة وقطع الخشب ، وتنهاه عن شتمها وعن استعمال تلك الالفاظ البذيئة التي كان يفوه بها في اغلب اوقاته ، ويقذف بها في وجه كل فرد من افراد الاسرة ، برفق ولين . وكانت تقول والالم يحز في نفسها والاسى يقطر من فؤادها والدموع تتناثر على خديها : « سأرسلك يا بني في صبيحة الغد مع والدك الى بيت خالك لتلعب وتلهو مع ابنائه . فيأتي الغد ويمسك والد صاحبنا بيد ابنه ويسير رويدا قاصداً بيت خال صاحبنا فيتركه هناك . وينصرف الى عمله بعد ان يوصي اتراب صاحبنا به . وان يتوسل اليهم بنفس كسيرة وقلب حزين الا يؤذوا هذا الطفل الضرير ، والا يأتوا بما يغضبه ويمس شعوره واحساسه . وعند الظهر كان والد صاحبنا يعود الى بيت صهره ويفتح ذراعيه ثم يضم الى صدره بعطف وحنان طفله الضرير وينثر على محياه قبلاته الحارة التي كان يشوبها اليأس والالم . ثم يحمل

طفله على كتفيه وينصرف مودعاً ابناء صهره شاكراً لهم حسن معاملتهم لابنه الذي كان حبه له حباً يقرب من العبادة. وفي اثناء الطريق كان والد صاحبنا يسأله عن كيفية معاملة اترابه له، ويقول له اتمنى يا ولدي ان تكون قد متعت نفسك بقسط وافر من الراحة والسرور والابتهاج » فيقول صاحبنا لابيه المحزون ليتك يا أبي لم ترسلني الى الدار خالي لالعب والهو مع ابنائه. وابناء جيرانه القساة اللئام . ولما سمع والد صاحبنا هذه العبارة القاسية الصادرة عن قلب كسير ونفس حزينة قال لولده والدموع تنحدر من مقلتيه كانحدار السيل المنهمر من اعلى القمم الى اعمق الاودية « قل لي يا ولدي عما لاقيته منهم من ضروب الاذى والسخرية والاستهزاء » : « فيجيب صاحبنا اباه بلهجة تقشعر لها الابدان وتلين من وقعها الصخور : «بعد ان غادرتني بين هؤلاء الاوغاد اخذوا يرمونني بالحجارة الكبيرة ، ويقولون سر من هنا يا اعمى فليس امامك شيء ، فالطريق امامك ممهدة وليس فيها ما يعرقل سيرك . وكنت اسمع قولهم واصدق زعمهم واتابع سيري رويداً رويداً حتى اصطدم بالحجارة التي كانت موضوعة لي في الطريق فتتهشم رجلي وتسيل منها الدماء ، وتهطل من مقلتي الدموع التي كنت اشعر اثناء تساقطها على خدي بنار ملتهبة غشيت وجهي واحرقت بعض اجزائه. وكنت بعد ذلك استجمع قواي وانهض من كبوتي لاتابع سيري ظناً مني انه ليس هنالك ما يعترض طريقي اثناء ابابي الى البيت الذي لم اكن ادرى اي الطرق التي

تؤدي اليه تخلصاً من هؤلاء الانذال ، الذين كانوا يتغنون في اهانتي واذيتي ولو كنت عزرائيل لاستلمت أرواحهم من اجسادهم في أقل من لحظة وقبل ان يرتد طرفي الي . وبعد بضع خطوات كنت اسقط في حفر كثيرة كانت قد حفرت في منتصف الطريق فيعلوني الغبار ويكسو شعر رأسي التراب وتعلق بملابسي الاقذار والاوحال التي كانت مبثوثة على جوانب الحفر وفي قعرها .

وبينما انا على هذه الحال كان يهرول نحوي صبية الحي وينادي بعضهم بعضاً تعالوا وانظروا هذا الاعمى المسكين الذي يتدحرج على قارعة الطريق . وكان ضجيجهم وصراخهم يعيد الى نفسي بعض الثقة في انسانية البشر ويخفف من نقمتي عليهم ظناً مني ان هؤلاء الصبية سيمدون الي يد المعونة وينهضونني من عثرتي ويرشدوني الى طريقي . ولكن سرعان ما كانت تزداد نقمتي على بني الانسان، ويتبدل ظني في صلاح وانسانية صبية قريتي والبشرية جمعاء لان هؤلاء الصبية الذين توسمت فيهم الخير والمعونة كانوا يتسلون بالامعان فيما كانوا يصبونه علي من ضروب الاذى والازدراء اذ كان احدهم يدفعني بقوة وعنف الى لرصيف الايمن من الطريق فاستلقي على ظهري ثم انهض بتثاقل فيدفعني الآخر بشدة وقساوة الى الجانب الايسر من الطريق ثم انهض وقد اعياني التعب فيسدد الثالث الى صدري قبضته دونما شفقه ولا رحمة فاستلقي على ظهري ثم انهض واقف على قدمي وانا أئن من شدة اللكمة ، فيبادر الرابع ويركلني من الخلف فاسقط على الارض

وتتحطم اضلاعي وتسيل من ذقني وشفاهي الدماء . ولو لا ان قيض الله لى رجلا كهلا محدودب الظهر كان يتصبب عاطفة ورحمة ففرق هؤلاء الصبية اللئام عني واقصاهم مني بعصاه التي كان يتوكأ عليها لاودى أولئك الصبية بحياتي بركلاتهم العنيفة ولكماتهم الشديدة .

ولما وصل والد صاحبنا وابنه العزيز الى المنزل كانت زوجته في انتظارهما فاجتذبت صاحبنا وضمته الى صدرها وراحت تقبله بحرارة وعطف قائلة له أتمنى ان تكون قد لاقيت ما سرك وانعش روحك وخفف من مصابك برفقة ابناء خالك وصبية حيهم يا ولدي . وما ان سمع صاحبنا تلك الكلمات التي كانت تنطق بها امه ببطء وتلعثم حتى شرع يقص عليها ما لاقاه في ذلك اليوم من هؤلاء الصبية الجهلة من ضروب التنكيل والسخرية والعذاب واسترسل في سرد تفاصيل ما حدث له منذ خروجه من المنزل حتى رجوعه اليه على مسامع امه المعذبة . فاعترى ام صاحبنا الصمت الرهيب وارتعشت كل عروقها واكفهر محياها وامتقع لونه وغشي عليها فسقطت على الارض كأن نازلة نزلت بها او عارض طرأ عليها او نوبة قلبية داهمتها . فارتعشت فرائص زوجها المنكوب وكاد يغمى عليه لو لا ما اوتيه من شدة الجلد والصبر على مقارعة الخطوب والثبات امام المدلهمات ولكنه سرعان ما انتصب على قدميه وأسعف زوجته المغمى عليها وبعد فترة قصيرة افاقت ام صاحبنا المسكينة من غشيتها وقالت له لن تخرج بعد اليوم من

البيت يا بني فاجابها صاحبنا سوف اخرج على الرغم منك ومن كل من يحاول صدي عن الخروج ويجرؤ على الوقوف في وجهي .

وفي صبيحة اليوم التالي انتهز صاحبنا فرصة انشغال امه في جمع التين المجفف من المكان الذي كانت قد اعدته له على جانب البستان الذي كان لا يبعد عن المنزل الا نحو أربعين متراً . فنهض من فراشه وارتدى ملابسه. ولما ايقن ان ليس في الدار من يراقبه ويمنعه من الخروج تسلل نحو الباب الذي كانت امه قد خرجت منه وسهيت ان تقفله وفتحه برشاقة ولطف حتى لا يشعر احد بخروجه ثم اغلقه بخفة وذهب ليتنزه مع صبية القرية الذين كانوا محتشدين على البيادر القائمة على هضبة في الزاوية الشرقية من القرية فلما اقترب من الصبية هرعوا اليه يرجمونه بالحجارة ويدفعونه باكفهم وارجلهم فاغتاظ صاحبنا من معاملة الصبية له واشتد حنقه عليهم وعاد ادراجه الى المنزل وهو في ازمة نفسية غاضب على البشرية والحياة مضمراً في نفسه الانتقام من اولئك الصبية الذين آلموه وساموه أسوأ العذاب واخذ يفكر في الوسيلة التي سينتقم من ابناء القرية بها فقادته افكاره القاسية الى ان يبقر بطن احدهم حتى لا يجرؤ الآخرون على الاعتداء عليه واضمر صاحبنا على تنفيذ خطته واخذ يبحث عن خنجر ليبقر به بطن من يظفر به من اعدائه وبعد جهد جهيد عثر على صندوق خشبي مقفل فعالجه حتى تمكن من فتحه فوجد فيه خنجراً في غمده فوضعه في جيبه وعاد ادراجه الى البيادر حيث كان الصبية يرتعون ويمرحون فتصدى

له احدهم ورماه بحجر فاسال الدم من معصمه واقترب منه ليركله فسارع صاحبنا الى الخنجر واستله من غمده وطعن بـــه الصبي في فخذه ولكن قواه خانته فلم يجرأ على استلال الخنجر مـن ورك عدوه ولو لا ان قيض الله له اناساً حملوا المصاب الى اهله وارجع الآخرون صاحبـنا الى منزله حيث كانت امه في انتظاره ونقـلوا اليها نبأ الجريمة التي ارتكبها ابنها وقـالوا ليت الذي ذهب ببصر هذا الصبي الشرير يذهب بحياته فيريحك ويريح الناس مـن شره . وكان لهذه العبارة الوقع الاليم في نفس ام صاحبنا ووقع نبـــأ الجريمة موقع الصاعقة من قلبهـا فذعرت واستولى عليها الذهـول والصمت العميق .

ومنذ ذلك الحين صار صبية الحي و القرية يهابون صاحبـنا ويخشون بأسه حتى ان الصبي الذي طعنه بخنجره تجنبه بعد ان كتم جرحه ولم يثأر منه .

# الفصل الرابع

## الى الكتـاب

في صبيحـة اليوم السادس عشر من شهر ايلول عـــام تسع وثلاثين وتسع مائة والف امسك والد صاحبنا بيد ابنه الضرير وسارا ادراجهما الى الكتاب القائم على رابية في الناحية الغربية من القرية . ولما وصلا الى الكتـاب وجدا الشيخ صادق شيخ كتاب

القرية يلقي الدروس الدينية على مسامع تلاميـــذه فانتظر والد صاحبنا خارج قاعة الدرس الى ان انتهى الشيخ من عمله وجلس ليستريح قليلا على مقعده فطرق والـد صاحبنا الباب مستأذنـــاً بالدخول فاذن له الشيخ ولما مثل والد صاحبنا بين يدي الشيخ حياه وصافحه وقبل يده قائلا : يا سيدنا الشيخ حفظك الله لنا وابقـاك واعزك في دنياك وأخراك لقد جئت بهذا الطفـل الضرير الـذي رزأني الله بـه وليس لي سواه لتعلـم القرآن الكـريم والصلوات الخمس وفروضها وسننهـا ولتغرس في نفسه حب الخير والفضيـلة والمزايا الخلقية الحسنة ولما فرغ الاب المحزون من كلامه قال له الشيخ ان ابنك اعمى وليس الكتاب معداً لتلقين العميان الدروس الدينية التي تنفعهم في الدارين ولا عمل لهم سواها ولا يصلحون الا لهـا ولكنها معدة لتلقين المبصرين العلوم الدينية وموضوعات اخرى كالرياضيات والطبيعيات واللغة الانجليزية والتاريخ والجغرافيـــا ودروساً اخرى . وليس بأستطاعة ابنك الضرير ان يستوعب هذه المواد ويجاري اخوانه المبصرين في الاغتراف من نميرها ويسير معهم في هذا كله فلا فائدة له منه ولكني انصحك ان ترسله الى الازهر الشريف حيث توجد التربية الصالحة له ولأمثاله وحيث يعب من مناهل اصول الدين واحكام التشريع وصحيح الاحاديث النبويـة الشريفة وتفاسير القرآن الكريم ما يجعل منه شيخاً صالحاً ومشرعاً قادراً. ثم قال : وليست الكتاب كما كانت عليه سابقاً من فوضى واضطراب بل هي في تقدم مطرد وتحسن ملموس فهي الآن مدرسة رسمية تابعة لوزارة المعارف .

وبعد لأي وافق الشيخ على ان يلحق صاحبنا بالكتاب لا لوجه الله ولا اكراماً لابيه الكثيب ولا عطفاً من شيخ الكتاب على صاحبنا ولكن حباً للمال الذي رشاه به والد صاحبنا . ومنذ ذلك الحين اصبح صاحبنا في عداد تلاميذ كتاب القرية المقربين من شيخها الشيخ صادق لان ام صاحبنا كانت تغدق عليه العطايا من زبد ودجاج وبيض .

كان صاحبنا يتعلم في كتاب القرية القرآن الكريم ومبادىء الدين واستطاع ان يسير مع اخوانه المبصرين وان يجاريهم في كل المواد التي كانت تدرس في الكتاب ما خلا القراءة والكتابة. وكان يختلف كل مساء الى بيت احد زملائه ليلقنه ما خصص له الشيخ من آي الذكر الحكيم وفروض الوضوء وسننه . ثم يعود الى منزله وهو يكرر ما حفظه من الآيات والسنن والفروض في نفسه لكي لا ينساه . وفي صبيحة كل يوم كان يذهب الى الكتاب بجد ونشاط ويتلو على مسامع الشيخ صادق ما حفظه عن ظهر قلبه من القرآن الكريم ومبادىء الدين فيربت الشيخ على ظهره ويهنئه على ما وهبه الله من قوة الذاكرة والحس المرهف ، وكان تشجيع الشيخ لصاحبنا على متابعة دروسه الدينية ومدحه له لما لمس فيه من جد واجتهاد واغراء امه وابيه له بالهدايا وقطع النقود وحبه للعلم وطموحه الى العلى اقوى الدوافع التي حثته على العب من معين القرآن الكريم والنهل من ينبوع الدين العذب .

وكان صاحبنا قوي الارادة صلب العزيمة لا تثنيه عن مقاصده

واهدافه الكوارث العظيمة والنوائب الجسيمة . فسدد الله منه الخطى واخذ يغترف من معين القرآن الكريم السورة تلو السورة والآية تلو الآية. واستطاع ان يستوعب من القرآن الكريم خلال العام الدراسي الاول من دخوله الكتاب الجزء الثلاثين من القران الكريم ( عم ) وان يستوعب خلال العام الدراسي الثاني من التحاقه بالكتاب من القرآن الجزء التاسع والعشرين (جزء تبارك) والثامن والعشرين «المجادلة» وفي اواخر العام الدراسي الرابع كان صاحبنا قد استوعب قسما كبيراً من القرآن الكريم وختم سورة ( يس ) .

فسر والد صاحبنا كثيراً من الشيخ صادق وكان فرحه بنجاح ابنه لا يقدر فأولم وليمة ودعا اليها الشيخ صادقاً وسائر شيوخ القرية وبعد الهرج والمرج تناولوا الطعام وهناؤوا والد صاحبنا بالفوز الذي احرزه ولده . وبعد ان فرغوا من مسامرتهم واحاديثهم دعى الشيخ صادق صاحبنا وقال : « اقرأ لنا يا بني الآيات الاولى من سورة الاحقاف » فلم يفتح الله عليه بحرف وكل ما كان يتذكره صاحبنا ان سورة الاحقاف كانت تبدأ «حم» تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، ثم قال الشيخ لصاحبنا اتل علينا ما تيسر من سورة الجاثية مبتدأ من اولها فلم يفتح الله عليه بحرف واطرق طويلا وهو يتمتم ويتأفف من الشيخ الذي اوقعه في هذا المأزق الحرج وفي هذا الامتحان الذي لم يخطر له على بال ولم يستعد له فاشمأز الشيخ من صاحبنا وتنحنح وتململ

ونظر اليه نظرة سخرية وازدراء ثم قال « اقرأ لنا الآيات الأولى من سورة الدخان » ففتح الله على صاحبنا بآية فقرأ وهو يرتجف ( حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ) فزمجر الشيخ وارعد قائلا ليست هذه سورة الدخان يا لعين فقال صاحبنا للشيخ لقد حفظت يا سيدنا الشيخ اكثر من خمس سور كلها تبتدىء بـ حم ) فرد عليه الشيخ قائلا وهو يغلي كالمرجل « اتل علينا ما تذكره من اول سورة الشورى » وكان صاحبنا يذكر ان سورة الشورى تبتدىء حم فتلا الآية التي يذكرها وكانت لسوء حظه تلك الآية بداية سورة الزخرف لا بداية سورة الشورى فامتلأ صدر الشيخ غضباً وحنقاً على صاحبنا الذي قضى اربع سنوات في حفظ القرآن ونسي ما حفظ خلال هذه الاربع سنوات بين عشية وضحاها . وقال له « اتل علينا ما تذكره من سورة الزمر ، فلم يفتح الله عليه بحرف فامسك الشيخ بعصاه وقال لصاحبنا مهدداً اياه بالضرب «لقد حفظت سورة يس منذ اسبوعين واظن انك لم تنسها فاتلها على مسامعنا» فقرأ صاحبنا «يس والقرآن الحكيم » ثم وقف لانه كان قد نسي الآية التي تلي الآية التي قرأها فرفع الشيخ عصاه وانهال بها على صاحبنا وهو يقول «وقف حمار الشيخ في العقبة » ولما رأى والد صاحبنا ان ابنه لم يحفظ شيئاً من القرآن الكريم او انه نسي ما قد حفظه فأضاع مدة ثمينة من حياته سدى . قال للشيخ اترك الصبي وشأنه وكف عن ضربه فضربك لا يعيد اليه ما نسيه من القرآن ولا يجديه نفعاً وفي اليوم التالي ذهب صاحبنا كعادته الى الكتاب ولما دخل قاعة

الدرس قال له الشيخ لا فائدة من مجيئك الى الكتاب يا بني وانصحك ان تقبع في عقر دارك ان القرآن الشريف يا بني لا يرسخ الا في صدور المؤمنين ولا تستطيع ان تحفظ منه شيئاً ولا يمكن ان يثبت في ذاكرتك شيء لانك زنديق وملحد لا تقر بالالوهية ولا تعتقد بيوم الحشر فقال صاحبنا ساراجع كل ما حفظته من القرآن الكريم يا سيدنا الشيخ وساحفظه من جديد فقال الشيخ لصاحبنا ساجري لك امتحاناً يا بني فان برهنت على كفاءتك وجدارتك بمتابعة حفظ القرآن الكريم ومبادىء الدين كنت من تلاميذ الكتاب الناجحين وبقيت في حظيرتنا ثم قال لصاحبنا اتل على مسامعنا سورة الحشر فلم يفتح الله عليه بحرف فقال الشيخ اقرأ لنا ما تيسر من سورة التغابن فلم يفتح الله عليه بحرف . قال اقرأ ما تذكره من سورة الصف فلم يفتح الله عليه بحرف .

فغضب الشيخ كثيراً ونادى احد تلاميذه وقال له احضر العصا والفلقة يا بني فجاء التلميذ بالعصا والفلق ثم دعا الشيخ تلميذاً آخر وامسك رجليه بمرسة كانت مشدودة بعصا غليظة وانهال الشيخ على رجلي زميلنا ضرباً دونما شفقة ولا رحمة ولم ينقطع الشيخ عن جلده بالعصا الا بعد ان سالت الدماء من رجليه فركله بقدمه قائلا قم يا خبيث قد ضاع كل ما بذلناه في سبيلك من جهود وسهر على تربيتك فانتصب صاحبنا على قدميه فاتحاً ذراعيه وقبض بهما على خاصرتي الشيخ محاولا طرحه ارضاً ولكنه لم يفلح لان الشيخ

كان ناتيء البطن ضخم الجثة وبعد ذلك قبض التلاميذ على صاحبنا واجلسوه مكانه بعد ان اشبعه الشيخ لكماً وضرباً. وعند الظهيرة عاد صاحبنا بأنشاد الى المنزل وابى ان يرجع ثانية الى الكتاب فقالت له امه « ان لم تذهب الى الكتاب وتجدد نشاطك وتحفظ ما نسيته من القرآن الكريم تلاقي مني ومن ابيك اشد العقاب واذا ثبت الى رشدك ورجعت الى صوابك وعدت الى الكتاب والى متابعة دروسك بجد واجتهاد اكرمناك وانزلناك من نفوسنا منزلة القلب من الجسد . فقال صاحبنا « لن أعود الى الكتاب لان الشيخ يحفظني القرآن الكريم ولا يفهمني معانيه ولا استطيع ان احفظ شيئا قبل ان افهم معناه ولو خيرت بين البقاء في البيت الذي يفوق الجحيم المستعر حرارة واسوداداً وبين الذهاب الى الكتاب التي تزعمين انها فردوس ارضي لآثرت البقاء في المنزل على الذهاب الى الكتاب .

# الفصل الخامس

## من الظلمات الى النور

ابى صاحبنا ان يعود الى الكتاب وظل قابعاً في عقر دار ابيه يتخبط في دياجير الظلام خبط عشواء لا يملك من امره شيئاً ولا يعلم ما تكنه له الاقدار وما ستأتي به الايام فسئم الحياه ومل العيش وضاقت به الارض على وسعها وحار في امره وضج الناس منه . وكان يقضي ايامه في عويل وصراخ ونحيب ويمضي لياليه

في سهر وأرق وسهاد وتأوهات صادرة عن قلب اضناه الكمد تشيب الرضيع وتمزق نياط القلوب وتفتت الاكباد ولو قطعت من الصخر الصلد وقدت من الحديد . فضجرت امه منه ومن الحياة التي كانت تقاسمه البكاء والآلام والسهاد والتأوهات وضاقت به وبنفسها ذرعاً واعيتها الحيلة في اقناع ولدها ان الدنيا دار الفناء وان الآخرة دار القباء وانه سيرتد يوم القيامة بصيراً . وسينعم بنعيم جنة الخلد ويمتع نفسه بما فيها من خيرات لا تعد ولا تحصى وكان صاحبنا يفند زعم امه ويقول لها بتهكم وسخرية لاذعة لو شاء الله لجعلني بصيرا في الدارين ولو اراد لما حرمني رؤية كونه العجيب ولما سلبني اعزوا غلى الحواس التي وهبني اياها كسائر مخلوقاته ولما جعلني سخرية الساخرين ومحطاً لتهكم المتهكمين الذين يتباهون باسوداد عيونهم وحورها واتساعها ويفاخرون غيرهم بزرقتها وجمالها . ومن اين لي ان ارتد بصيرا في الآخرة وقد قال تعالى في قرآنه « ومن كان في هذه الدنيا اعمى فهو في الاخرة اعمى واضل سبيلا » وكان صاحبنا حينذاك يجهل تفسير هذه الآية الكريمة . فقالت له امه دع عنك يا بني هذه الخواطر المشينه والافكار السيئة ولا تنطق بها وثق بربك الذي خلقك فسواك فعدلك في اي صورة ما شاء ركبك . واصبر صبرا جميلا فمن صبر ظفر ومن لج كفر ، وقد قال تعالى في كتابه العزيز « ولنبلونكم حتى نعلم الصابرين منكم ونبلو اخباركم » اتق الله يا بني واخشى عذابه ان اكرم الناس عند الله اتقاهم وامر بالمعروف وانه عن المنكر كما امر الله وانزع من صدرك هذه

النقمة وهذه الافكار الجهنمية التي لا ادري كيف تسربت الى نفسك ولا من اين استقيتها واقم الصلاة واد جميع الفرائض الدينية فما الحياة الدنيا الا متاع الغرور وسيرث الفردوس عباد الله الصالحين وقد قال تعالى « سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض اعدت للمتقين » فقال صاحبنا انني لا اعلم متى يأتي يوم القيامة ولا في اي مكان يكون ولست على يقين من وجود نعيم مقيم وجحيم مستعر ومبلغ علمي ان المرء ينعم بحياته في شرخ شبابه لا في ايام كهولته وان جرعة من الماء والمرء صاد خير من جرعات والمرء مرتو . ان المبصرين يتمتعون بجمال الحياة وخيرات الآخرة ان كانوا صالحين . فلماذا ميز الله المبصرين عني ونقصني حقي ؟ فقالت له امه هذا ما قدر الله عليك يا بني وما كتبه لك . فقال صاحبنا هذا ما قدره الله علي وما كتبه علي فلماذا لم يقدره على غيري من اترابي ولم يكتبه لسواي من ابناء قريتي ثم قال لا ادري لماذا عاكسني الزمن وعضني الدهر بنابه العطبة الحادة وقست نواميس الطبيعة علي وشامت كلها ان اكون كفيفاً . ليت الحمام يزورني في شرخ شبابي ويستل مني الوديعة فاني لا امن بها عليه فقد كرهت الحياة وملت البقاء فيها . فقالت له امه « هون عليك يا بني ولا تقنط من رحمة الله فهو الذي خلقك ولن ينساك » كانت عظات امه لا تجد من ولدها اذناً صاغية وكان صاحبنا يضرب بها عرض الحائط ولا يعتبرها سوى تخدير للجروح وتسكين للآلام . فلم يلتفت اليها وظل تائها في غياهب ضلالته التي ورثها عن مصيبته ولم يقصدها ولم يخترها لنفسه . كان صاحبنا

يقاسي الآم الازمة النفسية التي حلت به ويعاني شدة ما كان عليه من طوى فكري وتعطش عقلي بين جدران سجنه الريفي المتواضع الذي كان اقرب الى الغنى منه الى الفقر . وكانت سحب الظلام والجهالة تظلل قرية صاحبنا قرية صوريف وتجعل من سمائها سماء قاتمة حالكة الظلمة ومن نهارها ليلا دامساً . فما فتئت سحب الظلام ان تلاشت شيئاً فشيئاً وادبر الليل بحلكته وسكونه واقبلت رسل الصباح مبشرة بأفول الليل وبزوغ الفجر . فانفلق الصباح صباح اليوم التاسع عشر من شهر ايلول عام ثلاثة واربعين وتسع مائة والف والتحق صاحبنا بالمدرسة العلائية للمكفوفين التي كانت آنذاك في مدينة خليل الرحمن . وكانت ولا تزال تعلم المكفوفين الكتابة النافرة والقراءة بواسطة حاسة اللمس وتمرنهم على ممارسة الصناعات اليدوية من مكانس وكراس وغير ذلك من الصناعات اليدوية التي ينتفعون بها وتنهض بهم من حالة الضنك والضيق التي كان ولا يزال يرزح تحت عبئها الثقيل الوف المكفوفين من احداث وممن بلغوا من السن عتياً في الشرق العربي الى حالة مرضية وتلقنهم جميع الدروس العصرية الابتدائية وتعلمهم الضرب على الآلات الكاتبة العربية والانكليزية. ويسهر رئيس هذه المؤسسة الاجتماعية الكبرى الفريدة من نوعها في بلادنا على راحتهم وتربيتهم تربية صالحة سهر الاب على راحة وتنشئة وتربية بنيه . بدأ صاحبنا يعب من معين العلم في العلائية واستطاع في عشرين يوماً ونيف ان يلم بمبادىء الكتابة النقطية والقراءة اللمسية باللغتين العربية والانكليزية فنال ثقة رئيس العلائية واعجاب

اساتذتها وتشجيعهم وثنائهم وفي اوائل شهر تمـــوز عام اربعة واربعين وتسعماية والف ادى الفحص السنوي الاخـــير ونال الرتبة الاولى في صفه . ثم ودع صاحبنا رئيس المدرسة ومعلماته ومعلميه وزملائه وعاد الى قريتـــه « قرية صوريف » . ليقضي العطلة الصيفية بين ظهراني اهله وذويه وما كادت العطلة الصيفية تقترب من النهاية ويأتي اليوم التاسع من شهر ايلول سنة اربع واربعين وتسعماية والف حتى اصيب صاحبنا بوبأ التيفوئيد ونقل الى مستشفى مارلوقة الذي كان آنذاك في مدينـــة خليل الرحمن . وظل صاحبنا في المستشفى يعالج سكرات الموت طيلة ثلاثة اشهر . ولما ابل من مرضه جدد نشاطه وعاد لمتابعة دروسه في العلائية . وكان الامتحان الفصلي الأول على الابواب فادى الفحص مع زملائه بأذن من ادارة المدرسة واحرز الدرجة الثانية بعد ان انكب على دروسه مدة اسبوعين لم يذق خلالها طعم النوم الا قليلا . ولكنه استرجع رتبته الاولى بعد ان ادى الفحص السنوي الاخير في اوائل تموز سنـــة خمس واربعين وتسعماية والف . وظل محافظاً على مركزه مقربـــاً من نفوس اساتذته وزملائه الى ان انهى آخر صف في العلائيه وهو الصف السادس الابتدائي ، وكان ذلك في صبيحة اليوم الثاني عشر من شهر تموز سنة ست واربعين وتسعماية والف وفي صبيحة اليوم الاول من شهر تشرين الاول عام ستة واربعين وتسعماية والف قيض لصاحبنا ان يلتحق بمدرسة خليل الرحمن الثانوية للمبصرين خاصة بالرغم مما لاقاه من صعـــاب ومشاق وبالرغم من معارضة

رئيس المدرسة ومفتش معارف لواء القدس آنذاك . ويعود الفضل في ذلك الى احدى موظفات دائرة الشؤون الاجتماعية وكانت الموظفة هذه على جانب عظيم من كرم الاخلاق ونبل الخصال وحب الانسانية والخير العام جذابة على جانب وافر من جمال النفس والجسد . وبعد تردد ولأي اذن رئيس المدرسة لصاحبنا بالدخول الى قاعة الدرس وظل محافظاً على سيرته الاولى من جد واجتهاد وسار في موكب زملائه المبصرين جنباً الى جنب ويداً بيد في الوقت الذي كان لا يجد من يقرأ له دروسه لانها لم تكن مطبوعة بالخط النقطي. وفي اليوم السادس من شهر تموز سنة سبع واربعين وتسعماية والف ادى صاحبنا كزملائه المبصرين الامتحان السنوي الاخير سنوياً ونال الرتبة السابعة من بين تسعة وثلاثين طالباً وعاد الى قريته مكللاً بأكاليل الظفر والنصر ، في صبيحة اليوم الثالث عشر من شهر تموز عام سبع واربعين وتسعماية والف بعد ان ودع اساتذة المدرسة وشكر لهم حسن معاملتهم له وعطفهم عليه . وفي صبيحة اليوم العاشر من شهر تشرين الاول سنة سبع واربعين وتسعماية الف غادر صاحبنا منزل ابيه قاصدا مدرسة خليل الرحمن الثانوية حيث رفع الى الصف الاول الثانوي وسار مع زملائه في ميدان العلم بنشاط واجتهاد وارادة تلين لها الصخور وعزيمة ترى البعيد قريباً وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني عام سبع واربعين وتسعماية والف صدر مشروع يقضي بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود فاحتج عرب فلسطين ورفضوا هذا المشروع واضطربت الاحوال في الديار المقدسة

وتعطلت الأعمال وأغلقت المدارس والكليات أبوابها في أواخر نيسان عام ثمانية وأربعين وتسعماية والف . وعاد صاحبنا الى قريته ولم يؤد الامتحان السنوي .

# الفصل السادس

## الى بلاد الارز

ولى الهزيع الاخير من الليل وأقبلت تباشير الصباح صباح اليوم الحادي عشر من شهر أيار عام ثمانية وأربعين وتسعماية والف غادر صاحبنا مسقط رأسه قرية صوريف ووطنه العزيز فلسطين تحت دوي المدافع وأزيز الرصاص . فوصل مدينة عمان عاصمة شرق الاردن عند الساعة الرابعة من اليوم ذاته وقضى تلك الليلة في فندق الأمراء . وفي صبيحة اليوم التالي غادر صاحبنا مدينة عمان فوصل مدينة دمشق عاصمة الجمهورية السورية بعد الساعة السادسة من مساء اليوم الثاني عشر من شهر أيار عام ثمانية واربعين وتسعماية والف . وظل نزيل فندق السعادة ثلاثة ايام . ولما ابل من وعكة كانت قد المت به في العاصمة السورية غادرها قاصداً مدينة بيروت عاصمة الجمهورية اللبنانية قبيل ظهر اليوم الخامس عشر من شهر ايار سنة ثمان واربعين وتسعماية والف . فبلغ به المطاف الى عروس الشام وام العلوم مدينة بيروت في ساعة مبكرة من مساء ذلك اليوم التاريخي الذي انزل فيه آخر علم بريطاني من سماء الديار المقدسة ودارت رحى الحرب فيه بين العرب ورباثب الاستعمار البريطاني اليهود على مسرح فلسطين

مهد الانبياء والرسل الكرام وعرين الشعب الفلسطيني الذي قارع بريطانيا الاستعمارية وابنتها الصهيونية ربع قرن فبات تلك الليلة في فندق الاندلس وظـــل نزيل ذلك الفندق طيلة شهر ونصف. ثم غادره الى مسكن متواضع يقع في احدى زوايا حي عائشة بكار حيث قضى فيه ما تبقى من فصل الصيف.

وفي صبيحة اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الاول عام ثمانية واربعين وتسعماية والف. دبج صاحبنا رسالة وجههـــا الى عميد الجامعة الاميركية في بيروت وكانت تتضمن تلك الرسالة رغبة صاحبنا في الالتحاق بجامعة بيروت الاميركية ومنارة العلم والثقافة في الشرق كما يقولون. ثم ركب صاحبنا الحافلة الكهربائية قاصداً مكتب عميد الجامعة. ولما اقترب من بوابة الجامعـــة الوسطى اعترضه البواب قائلاً «الى اين انت ذاهب ياشيخ» فقال صاحبنا «اود ان اقابل عميد الجامعة ياسيدي» فقال له البواب متعجباً «ان مكتب العميد لا يزال مغلقاً وهو لا يستقبل احدا الا بعد الساعة الحادية عشر من كل يوم» فقال صاحبنا «اتأذن لي ياسيدي ان ابقى هنا حتى يحين الوقت الذي يقابل العميد فيه الناس» فقال البواب «لا اظن ان العميد يأذن لك بمقابلته» ثم قال «مالك ولمقابلة العميد ياشيخ فان كنت تبغي نقوداً تكسب بها قوت يومك فليست الجامعة معدة للتصدق على الفقراء والمحتاجين وليست هذه مهمة عميدها ولكنني انصحك ان تذهب الى مأوى العجزة حيث يتوفر اللباس والغذاء لك ولأمثالك» وقال احـد جلساء البواب لصاحبنا «بأي دين تدين يا شيخ» فقـال صاحبنا

« ادين بالاسلام يا سيدي » ثم قال انصحك يا شيخ ان تذهب الى دار الفتوى وتبسط حالتك لسماحة المفتي لعله يساعدك ويلحقك بكلية فاروق الشرعية القائمة على رمل الزيدانية حيث تتوفر لك جميع وسائل الراحة . وبعد ان تقضي خمسه اعوام متتالية في هذه الكلية تتلقن خلالها القرآن الكريم واصول الشريعة الاسلامية تخرج من الكلية واضعاً العمامة والطربوش على رأسك لابساً الجبة والقفطان وحينئذ يتسنى لك ان تصبح اماماً في احد المساجد او ان تكون نديماً للموتى تقرأ على قبورهم القرآن الكريم لقاء نقود تعطى لك فتكفل لك حياة هنيئة . ثم قال دع عنك الجامعة فهي ليست معدة لتعليم العميان ولا فائدة لك من الالتحاق بها لانها تلقن الطلاب الهندسة والطب والعلوم الطبيعية واللغات الانجليزية والعربية والفرنسية وهذه مواد يستحيل فهمها عليك ولا تجلب لك منفعة ولا فائدة» فضاق صدر صاحبنا من تلك المضايقات والجهالات وتمنى ان تنشق الارض وتبلعه حتى لا يسمع تلك العبارات التي كانت تنحت من قلبه كما ينحت الحديد من الصخر ولا تلك الاحاديث التي كانت تجرعه السم الزعاف وتطبع في نفسه صور المجتمع البشري القبيحة وتشحن صدره بالنقم والضغائن على كل من يدب على وجه هذه الخرساء . وبالرغم من كل هذه الآلام النفسية ظل صاحبنا يسعى جادا في طلب العلم بهمة عالية وعزيمة صادقة قوية ولم تثبط همته وتحبط مساعيه تلك الصعاب والعقبات التي كان يجسمها لصاحبنا ذوو الارادات الضعيفة والنفوس الصغيرة والعزائم الخائرة . والح على البواب في طلبه فتناول منه البواب

الرسالة وبعث بها الى مكتب نائب العميد وبعد قليل اذن نائب العميد لصاحبنا بالمثول بين يديه وقال له «ان جامعة بيروت الاميركية يا اخي جامعة اعدت لتدريس المبصرين لا لتعليم المكفوفين ، والمكفوفين معاهد خاصة ووسائل تمكنهم من متابعة تحصيلهم » فقال صاحبنا « ليس في الشرق كله معهد ثانوي من هذا النوع يا صاحب كتاب «معنى النكبه» فقال نائب العميد « كان طلب التحاقك بالجامعة متأخرا يا اخي ولم يبق مجال لقبولك ثم قال سارسلك الى رئيس الكليه الاستعدادية لعله يجد لك مكاناً في الصف الملائم وضغط على زرّ كهربائي كان امامه وبعد هنيهة حضر الخادم وتأبط ذراع صاحبنا الى ان وصلا الى مكتب رئيس الكلية الاستعدادية فسرد صاحبنا على مسامع نائب رئيس الكلية الاستعدادية ما سرده على مسامع نائب العميد فقال نائب رئيس الكليه الاستعداية لصاحبنا ما قاله له نائب العميد قبل بضع دقائق ثم عاد صاحبنا الى مسكنه ساخطاً على الدنيا ومن فيها حتى على نفسه

وفي صبيحة اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني عام ثمانية واربعين وتسعماية والف غادر صاحبنا مسكنه قاصدا مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين الذي كان قائما آنذاك على رأس بيروت فوصله بعد مشقة وجهد جهيد وبعد ان سرد قصته على مسامع اول الامر فيه حملوه رسالة كانت موجهة الى سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية فحواها طلب الحاق صاحبنا بكلية فاروق الشرعية القائمة على رمل الزيدانية وارسلوا معه شاباً ليرشده الى مقر دار الفتوى ولكن سماحة مفتي الجمهورية

اللبنانية اهمل تلك الرسالة ورسالة اخرى كانت موجهة لسماحته من قبل المكتب ذاته ورفض قبول صاحبنا كطالب بكلية فاروق الشرعية بحجة ان كلية فاروق تدرس بالاضافة الى القرآن الكريم والشريعة الاسلامية العلوم الرياضية والطبيعية والاجتماعية ولا قبل لطالب ضرير كصاحبنا ان يستوعبها وان يجاري المبصرين فيها . فالفى صاحبنا نفسه في مأزق حرج لا يستطيع الخلاص منه وكادت مساعيه وجهوده تؤد ضحية للاثانية والعجرفة لو لا ان هداه الله الى منظمة انسانية اطلقت على نفسها مكتب فلسطين الدائم فاكرمت مثواه وانزلته المنزلة اللائقة به ومهدت لصاحبنا سبيل الالتحاق بكلية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت

وفي صبيحة اليوم السادس عشر من شهر تشرين الثاني عام ثمانية واربعين وتسعماية والف قيض لصاحبنا ان يلتحق بالسنة الثانوية الرابعة بكلية المقاصد الخيرية الاسلامية فلاقى من عميدها واساتذتها التشجيع على العب من منهل العلم واللطف والمعاملة الحسنه وبالرغم من الصعاب التي كانت تعترض صاحبنا في الدرس والتحصيل ومن قفزه من السنة الاولى الثانوية الى الرابعة الثانوية تمكن من مجاراة اخوانه المبصرين في كل المواد ما خلا العلوم الطبيعية والرياضية وكان صاحبنا يعتمد في دراسته على حاسة السمع وعلى معونة لفيف من الفتيات اللواتي كن يدعونه الى منازلهن ويقرأن له دروسه وما يشاء . من كتب المطالعة غير آبهات بما كان يدور حولهن من اتهامات واحاديث لا تليق بشرفهن وحصانتهن . وفي اوائل شهر حزيران عام تسعة واربعين وتسعماية

والف طلب صاحبنا من المجلس الثقافي الاعلى البريطاني السماح له بتأدية امتحان «لندن متريكوليشن» شريطة ان يستبدل الرياضيات بأي موضوع شاء لانه كان من التعذر عليه وعلى امثاله في الشرق دراسة هذه المادة. فباء طلبه بالفشل لان الرياضيات من المواد الاساسية في امتحان «لندن متريكوليشن» ولا يجوز استبدالها بغيرها من المواد ولان المكفوفين في بريطانيا يؤدون ذلك الامتحان بما فيه الرياضيات وكانت هذه اعظم صدمة لقيها صاحبنا في حياته بعد ان فقد بصره.

كان صاحبنا قد وجه كتاباً الى عميد دار العلوم بجامعة فؤاد الاول بخصوص التحاقه بالكلية، وشاءت الصدف الغريبة ان يكون رد وزارة المعارف المصرية على طلب صاحبنا رداً ايجابياً لا سلبياً كرد رئاسة جامعة بيروت الاميركية ورد سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية بخصوص التحاقه بكلية فاروق الشرعية وقد ورد في رد وزارة المعارف المصرية المؤرخ في اليوم الثامن من شهر كانون الثاني عام تسعة واربعين وتسعماية وألف

ان شهادة كلية المقاصد الاسلامية ـ بيروت من الشهادات التي تجيز لحاملها التقدم لامتحان المسابقة المقرر لدخول الكلية وان لائحة الكلية لا تمنع من قبول طالب ضرير على الا يعد لمهنة التدريس والا يمنح الامتيازات التي يمنحها من يعد لهذه المهنة في الكلية. فارسل صاحبنا شهادة تثبت انه اجتاز السنة الرابعة الثانوية بالقسم الانجليزي بكلية المقاصد الخيرية الاسلامية وفي اليوم السابع والعشرين من شهر أيلول عام تسعة وأربعين

وتسعماية والف ، تسلم صاحبنا رسالة من قبل وزارة المعـــارف المصرية جاء فيها : « نفيدكم بشأن طلب التحاقكم بكلية دار العلوم بجامعـــة فؤاد الاول بانـــه يجب ارسال مسوغات الالتحاق الناقصة وهي شهادة الميلاد والشهادة الطبية الدالة على الخلو من الامراض المعدية والطفيليات . فنرجو ارسالها في أقرب فرصة ممكنة حتى يمكن البتّ في أمر قبولكم بالكلية . فشكر صاحبنا وزارة المعارف المصرية على حسن صنيعهـــا وارسل لها مسوغات الالتحاق الناقصة . وحان موعد بدء الدراسة ولما يتسلم صاحبنا رد وزارة المعارف المصرية ولم تسمح له وزارة الداخلية المصرية بدخول الاراضي المصرية فأبرق صاحبنا الى الوزارتين ولكن

لقد اسمعت لو ناديت حياً ولكن لاحياة لمن تنادي

وذهبت مساعي صاحبنا وجهوده أدراج الرياح ودون جدوى .

# الفصل السابع

## زهرة في حقل عوسج

كان ينقص كلية المقاصد الاسلامية في بيروت لما التحق بها صاحبنا قسم داخلي لسكنى الغرباء . وكان صاحبنا منذ نعومة أظفاره ، فوقفت هذه المعضلة في وجهه وكادت توصد سبيل العلم الشائك الذي اجتاز منه الثلث الاول بعد مشقة وعناء . وكانت هذه العقبة الكئود كفيلة لان توقف صاحبنا موقف الحـــيرة

والاضطراب والذهول لان حالته المادية لم تكن تساعده على السكنى في منزل خاص به لكثرة ما يتطلبه ذلك المنزل من نفقات ، ولان عاهته لاتمكنه من السكنى في منزل خاص بمفرده ، فهو في حاجة ماسة الى من يحضر له الطعام ويقوم بخدمته وتنظيف منزله وملابسه . وبعد روية وتفكير عميق وطول أناة تبلورت في دماغ صاحبنا فكرة مؤادها ان لا سبيل له للاستمرار في متابعة الدرس والتحصيل وكانت هذه أمنيته منذ حداثة سنه وعز على صاحبنا ان يكون نصيبه الفشل وان يرتد خائباً بعد ان بلغ شأواً بعيداً في تذوق لذة العلم والثقافة وبعد ان قطع الشوط الأول في سبيل الدراسة ووقف امام هذه المشكلة التي لم يجد سبيلا لتذليلها موقف اليائس الحائر الذي لا حول له ولاطول ولا يدري ماذا عساه ان يفعل وقرر في نفسه ان يعود الى مسقط رأسه وان يترك العلم لذوي الوجاهة والثراء وان يتخذ له صنع كراسي الحيزران والمكانس وفراشي الارض عملا ليحصل بواسطته على قوته الضروري . واذا لم تؤمن هذه الحرفة له معاشه يعود فيحفظ عن ظهر قلب ما يستطيع حفظه من القرآن الكريم ويضع العمامة على هامته ويرتدي الجبة والقفطان ويتقلد السبح ويرخي ذقنه وينادم الموتى وينفق أيام حياته على المقابر وفي المآتم . وهم صاحبنا بتنفيذ ما قرره ، ولكن عميد كلية المقاصد الاسلامية في بيروت آنذاك اتصل بواسطة الهاتف بأحد أعضاء مكتب فلسطين الدائم في بيروت وكان ذلك العضو آنذاك ايضاً عضواً من اعضاء عمدة دار الايتام الاسلامية في بيروت ومراقب شؤون التعليم فيها

وكانت نتيجة اتصال عميد الكلية بمراقب شؤون التعليم في الميتم الاسلامي ان اسكن صاحبنا في الميتم الاسلامي لقاء أجور زهيدة كانت تدفع لمحاسب الدار كل شهر. وفي أمسية اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الثاني عام ثمانية واربعين وتسعماية والف «م» وضع لصاحبنا سرير وضيع في غرفة حقيرة الى جانب سرير كان قد اعد لاحد ابناء الدار لانه تجاوز السن القانونية التي لا تسمح له بالمبيت مع اخوانه الاطفال الأيتام الذين كان لا يتجـــاوز اكبرهم سناً الرابعة عشر وكان ابن الدار هذا قد تجاوز العشرين من سنه على الاقل ولم يكن بالامكان فصله عن حظيرة الميتم لانه كان لقيطاً معدماً وذاعاهة في احد ساقيه . وكانت الغرفة التي كان يبيت فيها صاحبنا الى جانب جاره اللقيط مباحة لجلوس حارس الدار وبوابها وكان رفيق صاحبنا في المبيت اسكافي الميتم وكان سريره يتفوق على سرير صاحبنا في الاناقه والنظافة والترتيب لانه كان مميزا عن صاحبنا وكان يلقى عناية خاصة من قبل المسؤولات عن تنظيف الملابس والفرش والاسرة في الدار. بينما كان صاحبنا مهملا لا يعنى بأمره ولا يتهيأ له ما تهيأ لجاره لانه كان منكباً على دروسه منهمكا في المطالعة والتحصيل لا يلتفت الى أحد ولا يتدخل في شؤون غيره بعيداً عن المجاملات غير المجدية لا يغازل بعض عانسات الدار كما كان يفعل غيره لان ذلك لا يجديه نفعاً ولا يعود عليه الا بضياع وقته الثمين في تجاذب اطراف الحديث مع أناس ليسوا من مقامه وكان صاحبنا يربأ بنفسه ان يجالس الرعناء وان يشاطرهم لهوهم وغيهم وأن يغازل عانسات يفقن امه سناً. وكانت مغازلتهن

سهلة المتناول يسيرة الامر لانهن كن ساذجات سلسات الانقياد كالريشة في مهب الريح لا يثبتن على حال وكانت مغازلتهن مغازلة آثمة سافلة المرامي لانهن حرمن من التمتع بلذة الحياة الزوجية لانصراف الشباب عنهن الى غيرهن . وكان صاحبنا يحب المغازلات البريئة التي كانت بعيدة عن تلك البيئة التي لا تصلح الا لنمو الفسق والفجور وكان صاحبنا يأبى ان يجاري هؤلاء فيما يعملون لئلا يتسرب الى نفسه الفساد ويشوب اخلاقه الحميدة الانحطاط فينغمس في ملذاته ويندفع مع تيار عواطفه وشهوات نفسه وينصرف عن السير في سبيل هدفه السامي ويضيع حياته بين احضان بنات حواء ولذلك كان صاحبنا مكروهاً من قبل بعضهن بغيضاً الى بعضهن سمجاً ثقيل الظل في نظر من ساءت سيرتها منهن. وكان لزاماً على صاحبنا ان يكيف نفسه حسب ما تقتضيه الظروف وان يجامل من يعيش معهم وان يداريهم ولو بعض المداراة على الاقل ولا سيما النساء منهم لأن احوالهن النفسية الشاذة تتطلب ذلك ولانهن كن مفعمات بحب السيطرة والنفوذ وان كن لسن من العلم والثقافة في شيء وكن لا يتورعن من الانتقام ممن لا يأتمر بأمرهن مهما كان ومهما ساءت عواقبه بوسائلهن الخسيسة الدنيئة . ولكن صاحبنا تحاشاهن وتجنب كل من كان يرى في تجنبه خيراً وفي معاشرته شراً لان صاحبنا قد لذع من معاشرة الأشرار من الناس ولا سيما الشريرات من النساء لما كان في دور المراهقة وكان حينذاك يتلقى دروسه في المدرسة العلائية للمكفوفين في فلسطين والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين . وكان اللدغ الذي لدغه صاحبنا وهو

في دور المراهقة على يدي مراقبة القسم الداخلي في المدرسة العلائية للمكفوفين في فلسطين حين ان راودته عن نفسها وكانت في العقد الرابع من عمرها فلاقت رغبتها من صاحبنا اذناً صماء وارادة لا تقاوم باديء ذي بدء ولكنهـــا ظلت جادة في السعي لتحقيق رغبتها تارة بالترغيب وبالترهيب تارة اخرى وبعد السعي الحثيث والاغراآت الكثيرة خلقت لنفسها مكاناً في قلب صاحبنا وشجعته على ارتكاب الفاحشة وبلغت وطرها منه . ويقول صاحبنا كما قال يوسف بن يعقوب : « وما ابريء نفسي ان النفس لامارة بالسوء»

وكان صاحبنا في ذلك الحين اضعف من ان يقاوم رغبـــات نفسه وشهواته ككل انسان وان يقف في وجه ارادة العانسات وهذه نتيجة طبيعية لمعاشرة الافاعي من النساء فمن عاشر العفيفات الطاهرات ازداد عفة وطهـــارة ، ومن عاشر الفاسقات الفاجرات ازداد فسقاً وفجورا واذا رافقت الفتيات النبلاء الاخيار اكتسبت منهم وتطبعت بأطباعهم وكذلك اذا عاشرت الفتيات ابناء السوء والاشرار أخذن عنهم وسرن سيرتهم لان للغرائز والبيئات اثراً كبيرا في حياة الافراد والجماعات سواء في الخير او الشر .

وما عتم مدير المدرسة العلائية للمكفوفين ان علم بكل ما وقع بين تلميذه صاحبنا وبين موظفته وقريبته ويعود الفضل في ذلك الى زوجه التي كانت تساعـــده في ادارة شؤون المدرسة وهـي سويسرية من أصل المانى دقيقة الملاحظة مثال الزوجة المخلصة تجيد اللغتين الالمانية والانجليزية وتـــلم بعض الالمام باللغتين العربيـــة والافرنسية . وكانت الاجراآت التي اتخذها مدير المدرسة العلائية

للمكفوفين ليمنع وقوع مثل هذا الحادث ان اقال مراقبة القسم الداخلي في المدرسة العلائية من منصبها وابقى صاحبنا في حظيرة المدرسة ليكمل عامه الدراسي وكان ذلك العام آخر عام قضاه صاحبنا بين جدران العلائية وبعد أيام قلائل شغلت مكان الموظفة المقاله موظفة جديدة اصغر سناً من سابقتها وانعم ملمساً واوفر جمالا ولم يمض عليها بضعة ايام في المدرسة حتى بـــدأت تتودد لصاحبنا وتنتظر بفارغ الصبر الفرص التي تتيح لهـــا التحدث مع صاحبنا وكانت تنفحه هدايا من الشوكولاتـــه وسائر الحلويات والسكاكر. ولما كان يحين وقت تقليم الاظافر كانت تقضي مدة طويلة في تقليم اظافر صاحبنا وهي تناغيه وتناجيه وتلسعه بأناملها وتخدش جسمه بأظافرها الحادة الوردية . ولكن صاحبنا كان يلاقي كل هذه المداعبات والمناغشات بـبروده وعـــدم مبالات واكتراث . فساءها ذلك وضاقت الدنيا في وجهها وحارت في امر صاحبنا ووقفت مذهولة لانها لم تتمكن من السيطرة عليه واجتذابه بالرغم مما بذلته في سبيل ذلك من شتى الجهود والاغراآت ولما غادر صاحبنا المدرسة العلائية ليقضي عطلة الربيع بين ظهراني اهله وذويه أسفت لفراقه أسفاً شديداً وودعتـــه وهي تتكلف البكاء وناولته ورقة من القطع الكبير كتبت عليها بخط يدها عنوانها مكررا نيفاً وعشرين مرة. وفي أثناء العطلة حمل ساعي البريد الى صاحبنا رسالة مسجلة عبرت له فيها عن عواطفها نحوه وعن شغفها به وحبها له . فرد عليها صاحبنا بمثل ما كتبت وكتب اليها رسالة مسجلة وأرسلها لها وعلى اثر تسلمها تلك الرسالة ذهبت من فورها

الى مدير المدرسة العلائية باكية ساخطة واطلعته على الرسالة وزعمت له انها لم تكتب لصاحبنا قط وانما رسالته هذه من نسج الخيال. وكان مدير المدرسة العلائية شديد النقمة على صاحبنا فأزداد حنقه عليه دون ان يفكر في أمره وان يراعي ظروفه. ولما تخرج صاحبنا من المدرسة العلائية كتب له مديرها ملاحظة على شهادته: «لقد اعرب عن استمراره في الدروس ولكنني لا اتوقع له النجاح»

فتأثر صاحبنا كثيرا وكان لهذه العبارة الوقع الاليم في نفسه وخشي ان تسد عليه سبيل الالتحاق بأحدى المدارس فكره المدير وعبارته كرهاً شديدا ولكن هذه العبارة لم تضره ولم تسد عليه الطريق. وقد ورد في القرآن الكريم هذه الآية «وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم» واثبت هذا علم النفس الحديث.

كان المبتم الاسلامي يبعد عن كلية المقاصد الاسلاميه نحواً من ثلاثمائة متر ونيف وكان صاحبنا يقطع هذه المسافة بمفرده بضع مرات كل يوم غير آبه بحركة السيارات والقطارات الكهربائية التي كانت لا تغيب عنها الشمس وبيروت مدينة مزدحمة بشتى انواع السيارات. وكان صاحبنا يقطع هذه المسافة في مدة لاتزيد عن ربع ساعة بينما كان يقطعها مع زملائه المبصرين اذا صادفوه في الطريق في مدة تتراوح بين الخمس والسبع دقائق وكان في اغلب الاحيان يصل متأخراً عن موعد قرع الجرس الذي كان يأذن بالدخول الى الصف ببضع دقائق لانه كان لا يجد طعامه جاهزاً في الوقت المحدد وكثيراً ما كان يعود من الدار الى الكلية دون أن يتناول طعامه وكان يسير في طريقه بتثاقل وبطء مرهفاً

اذنيه ليميز بين دوي السيارة العابرة والسيارة الذاهبة وكان اذا اراد ان ينتقل من رصيف الى آخر اضطر الى الانتظار طويلا حتى تخمد حركة السيارات وتهدأ قليلا ثم ينتقل مسرعا الى الرصيف الثاني بنفسه أو ينقله اليه اناس من المارة الذين كانوا يعطفون عليه ويمسكون بيده ويوصلونه الى حيث يريد وانى يشاء وكان هؤلاء قليلون وقليلون . وكان بواب الدار حينذاك شاباً سليم القلب شعر بما يلاقيه صاحبنا من صعاب أثناء ذهابه الى الكلية وايابه منها فتقدم من صاحبنا وقال له

« سارسلك الى الكلية كل يوم على الدراجة وسأعيدك منها كذلك » .

فسر صاحبنا ايما سرور من هذه البادرة الطيبة وشكر للبواب الطيب القلب لطفه وخدماته . وما ان شعر مدير الدار بما يقدمة البواب لصاحبنا من خدمات كان هو في حاجة اليها حتى صرف البواب عن خدماته بطريقة غير مباشرة فشعر بذلك صاحبنا واراد ان يعرف السبب الذي دعا مدير الدار الى ان يتخذ مثل هذه الاجراآت القاسية ولكن معرفة ذلك أعيته ولم يجد الى اكتشافها سبيلا . ثم اعتذر لصاحبنا بواب الدار الطيب النفس عن الاستمرار في ما كان يؤديه له من خدمات كانت لا تضر بمصلحة الدار . وكان بعض اطفال الدار يحبون صاحبنا ويتفانون في خدمته فكان بعضهم يحضر له الطعام وبعضهم يرسله الى الكلية ثم يعيده منها الى الدار بدون اذن المدير . وما علم مدير الدار ان لاحظ ذلك فصب نقمته على كل من كان ياوذ بصاحبنا او يؤدي

اليه اية خدمة . فتجنب الاطفال صاحبنا وقللوا من خدمته لأن مدير الدار كان يحدق اليهم بنظرات لا تنم عن رضاه بما يفعلون فذعر الاطفال وامتثلوا لأوامره وخشوا بأسه وانقطعوا عن مساعدة صاحبنا مرغمين ولكن قلوبهم كانت معه . وكانوا ينتهزون فرصة غياب المدير عن الدار فيهرولون اليه ويعملون له ما يريد . فشعرت بكل هذا احدى ناظرات الدار وكان قد وقع بينها وبين صاحبنا سوء تفاهم لم يتعمده صاحبنا ولم تقصده هي ولكن الوشاة قبحهم الله يوقعون الفتن بين الاخوة وكيف لا يوقعونها بين صديق وصديقته وكانوا من ذوات الكيد وقد قال تعالى فيهن الآية « ان كيدهن عظيم » وحسد النساء وغيرتهن أكثر وأقوى من كل غيرة . وما فتئت تلك الناظرة الشهمة حتى تناست كل شيء وعلمت الحقيقة وأبت عليها شهامتها الا ان ترسل كل يوم احد صبية الميتم ليرسل صاحبنا الى الكلية ثم يعبده منها ولكن مدير الدار علم بذلك وامر ان يؤتى له بالصبي فلما أوتي به قال له :

« من كلفك ان ترسل صاحبنا الى الكلية وتعيده منها » فذعر الصبي وارتجف من قمة رأسه الى أخمص قدميه ثم قال بتلعثم :

« الناظرة الفلانية يا أستاذ » وقال المدير مهدداً الصبي بالضرب اذا صحب صاحبنا مرة أخرى الى الكلية ثم قال للصبي :

« ليست الناظرة المسؤولة عنك وانما انا المسؤول وحدي عنكم جميعاً » وأغلب ظن صاحبنا ان نقمة مدير الدار عليه كانت

نتيجة اشاعة اشيعت عن مدير الدار واتهم صاحبنا باشاعتها ولكنه كان بريئا لا ناقة له في مثل هذه الاشاعات وغيرها ولا جمل. وكان صاحبنا ولا يزال انعزالياً لا يتدخل في شئون غيره ولا يجرب ان يصلح لئلا يفسد وحتى لا يسيء الى الناس ولا يسيء الناس اليه . وكانت تلك الاشاعة تزعم ان مدير الدار يحل لنفسه ان يختلس بعض ما يشاء من ارزاق الميتم التي كانت تجمع لاغاثة الايتام بواسطة التبرعات التي كان يتبرع بها اهل الخير وعن طريق السوق الخيرية التي كانت تقيمها عمدة الدار كل عام وكان الذي ألصق هذه التهم بمدير الدار شاب تركي كان يعمل في الميتم وكثيراً ما كان ذلك الشاب ينقل أخبار تلك السرقات الى صاحبنا لكن صاحبنا لم يعر مزاعم الشاب التركي اذناً صاغية ولا التفاتا حتى أتاه ذات مساء ببعض المواد الغذائية التي كانت معدة لترسل الى منزل مدير الدار فتحقق صاحبنا مما كان يخبره به الشاب التركي وتيقن من صدق تلك المزاعم التي كان ينفيها دائماً ويصر انها كانت كاذبة . وكان لا بد له من ان يعجب من صدق وشهامة ذلك الشاب التركي والثناء عليه لغيرته على مصلحة دار الايتام التي يدعوها صاحبنا « المؤسسة الاسلامية الشبه ناجحه » ولكن كان في فم صاحبنا ماء وهل ينطق من في فيه ماء وكان الدين يملي على صاحبنا ان يساهم في منع مثل هذه الصغائر والنهي عنها لا للانتقام من مدير الدار الذي كان يكن لصاحبنا في نفسه الحقد والضغينه ولكن للاصلاح والمصلحة العامة . فكان يقبل تارة على القيام

بهذا الواجب الانساني ويحجم مرة اخرى الى ان تذكر الحديث الشريف المروي عن نبينا محمد ﷺ القائل :

( من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان ) . وكان صاحبنا قد سمع حديث الرسول الاعظم مراراً وتكراراً عندما كان يلقيه عميد كلية المقاصد على مسامع طلاب الكلية وكان عميد الكلية يحب هذا الحديث ويحب من يعمل به . فأراد صاحبنا ان يعمل بموجب هذا الحديث النبوي الشريف وان يغير هذا المنكر الذي رآه وتحقق من صحته ما استطاع الى ذلك سبيلاً. وكان كل الذي فعله او استطاع ان يفعله ان حمل بضع قطع من السكر المسروق الى أحد اعضاء عمدة الدار واخبره بكل ما كان يزوده به الشاب التركي فحاكمت عمدة الدار سراً مديرها اللص المثقف فأنكر عليها ذلك وحاول الخروج من هذا المأزق بشتى الوسائل والادعاءآت الكاذبة ونفى عنه هذه التهم امين سر الدار وكان صديقاً له واصرّ مدير الدار وصديقه أمين سرها على الانتقام من صاحبنا واخذا يتحينان الفرص الى ذلك بعد ان انتقما من الشاب التركي وفصلاه عن عمله في الميتم .

وظل مدير الدار وصديقه امين سرها يترقبان الفرص وينتظرانها بفارغ الصبر ليوقعا بصاحبنا ما أوقعاه بالشاب التركي ظلماً وطغياناً حتى وقع بين صاحبنا وبين أحدى ناظرات الميتم سوء تفاهم سرعان مازال فاستغل مدير الدار هذه الفرصة المؤاتية لتحقيق رغبته ففاه بعبارات قاسيه لا تليق بشاب مثل صاحبنا وسرعان ما نقل

لصاحبنا ما فاه به مدير الدار في غيابه فتأثر صاحبنا وهاجت اعصابه واضطرب مزاجه فقادته افكاره الى ان يكتب الى مدير الدار رسالة ففعل ذلك ودفع اليه الرسالة بواسطة بواب الدار وكان مضمون الرسالة عتاب مشوب بالجرأة الادبية . فغضب مدير الدار وحنق وثار مما تضمنته تلك الرساله وكان مضمونها غير خليق بالغضب والاهتياج ودفع الرسالة الى صديقه امين سر الدار وأمر البواب ان يغلق الباب في وجه صاحبنا عندما يعود من الكلية ليتناول طعام الغداء . وبينما كان صاحبنا يتمشى في ملعب الكلية اذ ببواب الميتم يناديه قائلا :

تعال واركب خلفي على الدراجة لارسلك الى مختبر مراقب شؤون التعليم في الميتم » .فلبى صاحبنا نداء البواب وانصاع الى اوامره وهو لا يعلم سببا لهذا الطلب المستعجل . وبعد دقائق معدودات كان صاحبنا وبواب الدار في مختبر مراقب شؤون التعليم في الميتم فرحب صاحب المختبر به وصافحه ببشاشة وأجلسه على كرسي بقرب منضدة ولم يفاتحه بشيء وبعد هنيهة دخل امين سر الدار وصديق المدير المختبر وهو يلهث من التعب ويرتجف من الغضب وكان شيخاً تقدمت به السن ضخم الجثة فوقف صاحبنا وصافحه وجلس الاثنان جنباً الى جنب . فبادر امين سر الدار وقال لصاحبنا: ( لا تزال يابني طالباً ولا يحق لك ان تتطاول على مدير الدار لانك لست من مصافه ولا يمكن ان تكون من مصافه)

ثم قال بلغته العامية ولهجته المطاطه :

«ان مدير الدار يحمل جائزة من مصر» وكان يريد ان يقول

ان مدير الدار حائز على شهادة من مصر . فقال صاحبنا لأمين سر الدار :

( ما اردت ان اتطاول على مدير الدار يا سيدي ولا قصدت ان ازدريه واهاجمه ولكني طلبت الحق وقصدت الصراحة لكن من يعمل على اظهار الحق واحباط الباطل في ايامنا هذه ايام المداهنة والرياء تسفهه الأغلبية العظمى من بني الانسان وتزدريه وتعتبر قوله هراءاً وكل قوله حق وصواب وصحة . ومن اراد ان يعايش الناس ويعايشوه وان يسير مع دولاب الحياة ذلك الدولاب الذي نبذ من قاموسه العدالة والانصاف والحرية والجرأة الأدبية . وقد وسع كل شيء واحتوى على كل شيء ) . فقاطع امين سر الدار صاحبنا وقال :

( لا تتفلسف يا بني فاني لا افهم ما تقول ولم اتعلم علم الكلام ) وكان يريد ان يقول انني لا اتكلم اللغة الفصحى ولم يقصد بعلم الكلام العلم الذي عرفه الفيلسوف الاجتماعي ابن خلدون في مقدمته اذ قال : « علم الكلام علم يضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالادلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف واهل السنة . وسر هذه العقائد الايمانية هو التوحيد » . وكان مصيباً في قوله لانه كان امياً او شبه امي رجعياً ثقيل الظل ذا عقلية متحجرة وتفكير معوج سقيم . ودار بين صاحبنا وبين امين سر الدار حديث طويل ممل وجدال عقيم عنيف لان صاحبنا كان مصمما على ان يقف دون رأيه مجاهدا لا يتحول عنه ولا يثنيه عنه شيء اذا اطمأنت نفسه لصواب رأيه

وصحته وصدقه . وكان ولايزال يربأ بنفسه الابية ان يظهر خلاف ما يبطن ولو كان كذلك ( ولن يكون ) لأحبه الناس ويجلوه ولو ان مدير الدار كان يعلم علم النفس كما يزعم ما عامل صاحبنا بهذه المعاملة ولما قابله بهذا الجفاء الشديد الذي كان لحاجة في نفس يعقوب ولكنه كان يدعي ذلك ادعاءاً والذين يدعون العلم كثيرون وكثيرون جداً .

ولما أساء به الظن، وبعض الظن اثم ولو انه عمل بهدي القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين » الآية ( يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم ) ، لما حدث ما حدث ولا كان ما كان . والحقيقة ان مدير الدار كان اعلم مما هو اعلم فيه علم النفس وكان لا يعلم من علم النفس شيئاً .

فضجر النطاسي صاحب المختبر مما دار بين امين سر الدار وبين صاحبنا فطلب الرسالة التي وجهها لمدير الدار فدفعها امين سر الدار اليه . وبعد ان قرأها تحقق من صدق قول صاحبنا وكمال احتشام الرسالة ورغب لصاحبنا ان يتنازل عن حقه وان يكتب للمدير رسالة يعتذر فيها عما صدر منه . فنزل صاحبنا عند رغبة مراقب شؤون التعليم في الميتم وكان صلة الوصل بينه وبين امين صندوق مكتب فلسطين الدائم في بيروت الذي اسدى لصاحبنا

خدمات جلى وله عليه ايادي بيضاء لاينساها الله له ان نسيها صاحبنا ولاظنه ينساها ودبج لمدير الدار رسالة اعتذر منه فيها وما كان له أن يعتذر لانه كان على صواب الا ان الصواب عند اغلب الناس يستحيل الى خطأ جسيم . ودفعها اليه بواب الدار وعاد الى الكلية بعد ان ضاع من وقتة الثمين ساعة وبعض الساعة في جدال مؤلم وخسر ادة الاستماع الى محاضرة في الادب العربي الذي كان ولا يزال شغوفاً به مغرماً بالعب من منهله العذب الصافي والاغتراف من معينه الذي لا ينضب .

ومنذ ذلك الحين حذر مدير الدار وصديقه امين سرها على صاحبنا الخروج من الدار وكان كل ليلة يغادرها ويختلف الى بيت سيدة كانت تقرأ له دروسه ومنع اصدقاءه من الدخول الى الدار وكانوا يأتون اليها في اوقات فراغهم ليقرأوا لصاحبنا دروسه وكان مدير الدار يعاقب صبية المينم اذا اقتربوا منه وادوا اليه ما يحتاجه من خدمات الا ان بعض ناظرات الدار كن يرسلن صبيتها لمعونة صاحبنا اثناء غياب المدير عن الدار .

وذات صباح كان احد الصبية يحمل ملابس صاحبنا وكان قد احضرها من المكان الذي تنظف فيه وتجفف فرآه امين سر الدار وهدده بالضرب وشتمه وكان يغلي كالمرجل حينما قال للصبي :

( لسنا خدماً لهذا ولست مكلفاً باحضار أي شيء له ) .

وكان امين سر الدار بخيلاً يفوق بخله بخل الاهوازي وكان فضولياً يفوق فضوله فضول الرازي . ومضت ايام وايام واسابيع

واسابيع واشهر واشهر وصاحبنا صابر على كل ما لاقاه من اولئك الناس من ضروب اللؤم والقساوه الا ان لكل شيء حدّ ينتهي اليه ورحم الله امرأ عرف حده فوقف عنده . لكن مضايقات مدير الدار وامين سرها لم تقف عند حدها بل كانت تزداد يوماً فيوما واسبوعا فاسبوعا وشهراً فشهراً كان صاحبنا خلالها في ضنك وضيق تعتريه آلام نفسية فضجر الحياة ومل العلم والناس ومج كل شيء كانت تتوق اليه نفسه . فغادر الدار وهو في حالة هذيان وذهول وركب الحافلة الكهربائية قاصدا « المعرض احد أحياء مدينة بيروت حيث كان مختبر مراقب شؤون التعليم في الميتم ولما نزل من القطار الكهربائي اخذ ادراجه الى المختبر بين جموع الناس المحتشدة وبينما هو سائراً اذ اصطدم بسيدة كانت مارة واستقرت يده اليمنى على موضع العفاف منها عفواً دون قصد ، فغضبت السيدة وارتفع صوتها مولولا وراحت تعنفه وتؤنبه وتوبخه وتشبعه ركلا برجليها وهو صامت كالصخرة الصماء لا ينبث ببنت شفه وبينما هما كذلك هرول نحوهما رجال الامن ، ليقفوا على حقيقة الحال ، ولما رأوا صاحبنا رقوا لحاله وسألوه عما اذا كان تعمد الاعتداء على هذه السيدة فسرد عليهم قصة هذه المصادفة . ولما علمت السيدة ان صاحبنا كان ضريراً اعتذرت له واستسمحته وتابع صاحبنا سيره الى ان وصل الى المختبر وقص على صاحبه قصة معاملة المدير وامين السر الشاذة له ، ثم عاد الى الدار ولم يزدد علماً ويضطلع على جديد ، وذهبت شكواه عبثاً ودون جدوى ولم يحرك صاحب المختبر ساكناً ...

وكانت في الدار آنذاك فتاة يوغوسلافيه كريمة المحتد جميلة الطلعة ، حلوة البزة ، رفيعة الاخلاق . رمت بها الاقدار الى هذه البلاد عقب الحرب العالمية الثانية ، وكانت تلك الفتاة قد نزحت من يوغوسلافيا يوم ان ثار الجنرال تيتو على السلطات الالمانية التي كانت قابضة على زمام الحكم حينذاك . وكانت لاتجيد من اللغات الا لغتها اللغةاليوغوسلافية وبحكم بيئتها الجديدة كانت قد ألمت بشيء قليل وقليل من اللغة العربية . وكانت مكروهة من قبل كل ناظرات الدار إلا انها كانت صبورة جلدة . تحتمل ما لا يحتمل وتطيق ما لا يطاق ، تمشياً مع تصرفات الدهر القاسية وتقلبات الحياة التي تخفض العالي وتعلي من سفل . وذات مساء كان صاحبنا يتمشى في ملعب الدار فسمع صوتاً خافتاً وأنّات تمزق نياط القلوب فسار نحو الصوت ولما دنا من الفتاة سألها قائلاً:

ما بك يا آنسة ؟... ثم كرر السؤال وكرره مرات ومرات وبعد تردد طويل شرعت الفتاة في بث شكواها لصاحبنا لكنها كانت لا تكاد تبين . الا ان قلب صاحبنا رقّ لتلك الفتاة المسكينة وعطفت نفسه عليها وبادلها شعوراً بشعور وصداقة بصداقة واستطاع ان يستخلص مكنونات صدرها وان يطلع على خبايا نفسها الطيبة في أقل من لحظة ومن اول لقاء . وكانت في الدار عجوز شمطاء انتشل الموت من بين احضانها زوجها فأوتي بها وبنيها الى الدار حيث كان يؤمّن لها ولهم المأكل والملبس والمسكن. وكانت عجوز الدار قد نيفت على الخمسين او تزيد الا انها

كانت تظن انها لاتزال في شرخ الشباب وميعة الصبا وكانت تتزين وتتبرج كصبايا العشرين و كاعبات باريس ، وفاتنات فيرونا .

ومرت الايام والأشهر واخذت عرى الصداقة الطيبة وأواصر المحبة الطاهرة تنمو وتزداد بين صاحبنا وبين تلك الفتاة الشريدة الجريحة . فجاء اليوم السادس من أيار عام تسعة وأربعين وتسعماية والف . وكان ذلك اليوم يوم ميلاد صديقة صاحبنا فرأى ان آداب اللياقة وواجبات الصداقة تملي عليه ان يشارك صديقته في مسراتها وافراحها كما شاركها في آلامها وأتراحها فقدم لها بمناسبة عيد ميلادها السابع عشر هدية العيد وكانت هدية متواضعة لايقصد من ورائها مطلباً ماديا ولا ثناء ولا حمداً ولا شكوراً . وكانت تلك الهدية تتكون من باقة من الازهار والورود وعلبة من الشوكولاتة وشيء قليل من انواع السكاكر ونصف دزينة من المناديل الملونة الجميلة وبطاقة تهنئه بحلول عيد ميلاد صديقة صاحبنا وكانت تلك البطاقة مكتوبة باللغة اليوغوسلافية التي كان صاحبنا قد ألم بشيء قليل وقليل من مفرداتها وكانت صديقته هي التي لقنته هذه المفردات القليلة ولا يدري صاحبنا كيف انتشر خبر الهدية ولا يعلم كيف عرفت عجوز الدار الشمطاء ما دار بين صاحبنا وبين صديقته وكان لايعلم ان مدير الدار وناظراتها يسيئون الظن به، وبعض الظن إثم ويتهمونه بتهم كان بعيدا عنها وبريئاً منها ومن أمثالها ، وكانت تلك التهم وغيرها أجدر ان تلصق بهم وبمن يلوذ بهم . ويشهد الله الذي لا حد لعلمه ولا

مقياس لمعرفته وسعت رحمته تعالى كل شيء وأحاطت بكل شيء . ان صاحبنا لم ينظر الى صديقته نظرة مادية فاجرة فاسقة كما تعـــود معظم الناس ان ينظروا الى الفتيات المحصنات وان يقذفوهن . بل كان ينظر اليها نظرة روحانية بريئـــة تشوبها العواطف السامية . لكن الناس هناك لاكوا صاحبنا وصديقته بألسنتهم وألصقوا بهم التهم ، والله تعالى يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور وكانت في الدار فتاة فلسطينية نازحة تعمل كممرضة في الدار لقاء راتب شهري زهيد جداً . وكانت فقيرة لايتـوفر لديها من المال ما تسد حاجتها به . وكان اهلها في عزلةعنها اذ كانت هي في بيروت حاضرة لبنان وكان أهلها في حيفا مرفـــأ فلسطين وعروس البحر الابيض المتوسط . وكانت لجنة اليتيم العربي في حيفا هي التي نقلت بعض الفتيات والفتيان من فلسطين الى لبنان ووضعتهم في دار الايتام الاسلامية في بيروت على نفقتها الخاصـة . وكانت ممرضة الدار آنذاك في أواخر العقد الثاني من عمرها وكانت ككل فتاة من بنات سنها وفتيات عمرها تتطلب نفقـات تزيد عن مرتبها الشهري أضعافاً واضعافاً . وكان العمل الذي أنيط بها عملا شاقاً وفوق طاقتها ، أذ كانت مسئولة عـــن تمريض ستمائة يتيم ويتيمة . وكانت ناظرات الدار يعاملنها معاملة السيد للخادم وجدير بالممرضات اللائي يخففن الآلام عن المرضى ويرفهن عنهم ان يتبوأن مكانتهن في المجتمع الانساني ، وينلن اجلالا واحتراما من كل فرد من افراد الامة فضجرت ممرضة الدار من

التمريض والمرضى ومّلت الحياة لانها كانت كالطير السجين لا يسمح لها ان تغادر الدار بضع ساعات تتنسم فيها الهواء العليل وتروح عن نفسها الهموم . وكانت في حالة من الضنك والضيق يرثى لها . وكانت سحب الاكتئاب والهم والغم والكدر تظللها من قمة رأسها الى أخمص قدميها . وقادتها أفكارها القاسية الى ان تتخلص من الحياة وان تنحر نفسها بالمدية او تحرق نفسها بالنار او تتجرع السم الزعاف او تلقي بنفسها الى اليمّ من على الروشة ( صخرة الانتحار ) في رأس بيروت .

ولما علم صاحبنا بمكنونات نفس الممرضة ونواياها الشريرة . هرول اليها وراح يهدىء من روعها ويخفف من همومها ويطمئنها فعادت ممرضة الدار الى صوابها ، وثابت الى رشدها ، ورجعت عن غيّها بعد ان وعدها صاحبنا ان يجد لها عملا غير هذا العمل تتقاضى من ورائه راتباً شهريا محترماً تسد به حاجتها وتدّخر منه ما تستطيع ادخاره .

وذات يوم ذهب صاحبنا الى مكتب يدعى مكتب الهيئة العربية لفلسطين في بيروت وقص على مسامع احد المسئولين هناك قصة ممرضة الدار بحذافيرها . وبعد بضعة ايام اتصل ذلك الموظف بصاحبنا بواسطة الهاتف وطلب منه ان يخبر ممرضة الدار انه وجد لها عملا في المستشفى الاسلامي في بيروت وانه يطلب منها الذهاب لمقابلة طبيب المستشفى لتتسلم عملها الجديد هناك . فبلغ صاحبنا ممرضة الدار ما كلف بتبليغه ، وما على الرسول الا

البلاغ المبين . وذهبت ممرضة الدار من فورهـــا الى المستشفى وقابلت الطبيب. وتسلمت عملها الجديد في المستشفى لقاء مرتب شهري محمود يتفق و كفاءتها وكان يفوق مرتبها في الدار بستـــة اضعاف. ولما علم مدير الدار بذلك زادت نقمته على صاحبنا ووجد الفرصة مؤاتية للانتقام منه فانتهز الفرصة واخبر صديقه امين سر الدار بالعمل الشرير في رأيه الذي قام به صاحبنـا وكان عمله عملا أنسانياً محضاً لكن الاشرار يرون الشر خيراً ويرون الخير شراً ولا يأمنون الاخيار من الناس ولا يثقون بهم وكل من كان على هذه الحال كان شريراً لا ثقة له بنفسه ولا أمانة ولا ايمان عنده .

وفي مساء اليوم السادس عشر من أيلول عام خمسين وتسعمائة والف طلب امين سر الدار احضار صاحبنا فحضر وبعد ان أدى التحية قال له امين سر الدار بلغته العامية.

« هل تعلم اين ذهبت ممرضة الدار » . فقال صاحبنا :

« يقال انها ذهبت الى المستشفى الاسلامي لتعمل ممرضة فيـه يا سيدي » .

فقاطعه امين سر الدار وقال :

« ألم تكن صلة الوصل بينها وبين طبيب المستشفى »

فقال صاحبنا :

« بلى يا سيدي »

وما كاد صاحبنا يتم هذه العبارة حتى انهال عليه امين سر الدار بوابل من الشتائم والالفاظ البذيئة . فتأثر صاحبنا أيما تأثر وقال في نفسه :

« أن من يعمل خيراً في هذه الحياة يرى شراً ويكون جزاؤه الشتائم والاهانات »

ومن جملة ما قاله امين السر لصاحبنا :

« انك مجرم يا بني ولو كنت حاكماً لحكمت عليك بالاعدام. واني اؤكد لك انه لم يبق لك مكان في الدار وما عليك إلا ان تحمل امتعتك وأدواتك المدرسية وان تغادر في هذه اللحظة »

لكن صاحبنا ابى ان يمتثل لأوامر امين سر الدار ورفض ذلك رفضاً باتاً فقام امين سر الدار واتجه نحو غرفة صاحبنا وفتح الخزانة التي كانت فيها امتعة صاحبنا وادواته المدرسية ورمى بها الى ساحة الدار وكان من بينها نحو من عشرين مجلد من المجلدات المطبوعة بالخط النافر ( برايل ) لكن صاحبنا ابى ان يأخذ امتعته وادواته إلا اذا اعيدت الى مكانها وقال :

« انه لن يأخذها ألا بأمر من مراقب شئوون التعليم في الدار »

وترك صاحبنا امتعته وادواته المدرسية مبعثرة في ساحة الدار وذهب من فوره الى مختبر مراقب شئوون التعليم في الدار آنذاك فلم يجده . وفي المساء ذهب الى فندق الاندلس وقضى ليلته فيه . وفي الصباح ذهب صاحبنا الى مختبر مراقب شئوون التعليم في الدار وسرد على مسامعه تفاصيل ماحدث له وماوقع بينه وبين امين سر الدار وبعد تردد ولأي قال المراقب لصاحبنا .

« اذهب وخذ امتعتك وادواتك من الدار »

فأسرع صاحبنا الى الدار وتسلم امتعته وادواته المدرسية ووضعها في بيت احدى الاسر الفلسطينية النازحة وكان ذلك البيت متواضعاً

يود صاحبنا ان يسميه «بيت السعادة» وكان بيت السعادة هذا يضم بين جدرانه اماً انتزع الموت من بين احضانها زوجها. وفتاتين كانت الكبرى منهما في ذلك الحين في اواخر العقد الثالث من عمرها وكانت الصغرى في الثامنة عشرة من سنها وفتى كان في دور المراهقة. وكانت الفتاتان تقومان بنفقات البيت بنفسيهما. وكان صاحبنا يجد في مجالسة اهل بيت السعادة متعة ولذة لولا ان دفع الفضول اخى الفتاتين الى ان يسأل صاحبنا ويقول له:

«اي هذه العاهات الثلاث تفضل يا اخي: العمى، ام الطرش ام الخرس» فتألم صاحبنا كثيراً من هذه العبارة والتزم الصمت الا ان الصبي الح عليه بالسؤال فقال له صاحبنا والألم يحز في نفسه. والأسى يقطر من فؤاده:

«اما العمى فقد عرفته وخبرته واما الطرش والخرس فلم اعرفها ولم اذقهما بعد حتى اختار احدهما»

وظل صاحبنا نزيل فندق الاندلس حتى عثر على غرفة صغيرة متواضعة على مقربة من كلية المقاصد الاسلامية فغادر الفندق وسكنها. وذات صباح ذهب صاحبنا الى مكتب جريدة «اليوم» الغراء وهي جريدة مسائية وقص على مسامع رئيس تحريرها قصته وفي اليوم التالي نشر رئيس التحرير على صفحات جريدته قصة موجزة عن صاحبنا وعلق عليها تعليقاً كان جريئاً ومنصفاً.

وكذلك نشرت القصة نفسها جريدة «الشرق» الغراء وهي جريدة مسائية ايضاً وعلق رئيس تحريرها على ذلك المقال تعليقا كان صريحا ومؤلما.

وفي صبيحة اليوم الاول من شهر تشرين الاول علم خمسين وتسعمائة والف م. نقل صاحبنا كتبه وامتعته من « بيت السعادة» الى منزله الجديد وكان فيه وحيداً لا يجد من يشد ازره ولا من يعاونه في قضاء حاجاته فاضطر الى ان يتناول طعامه في المطاعم وان يزعج جيرانه بتنظيف ملابسه وغرفته . وكان لعزلة صاحبنا وانفراده عن الناس أثر سيء في نفسه وفي جسده اذ أصبح فريسة للأفكار والهواجس والهموم وتعود عادة التدخين وهي عادة سيئة وكان لا يدخن الا السجاير الممتازة وكان يدخن كل يوم لا أقل من بضعة وعشرين سيجارة . وكانت السيجارة نديمه في وحدته وأنيسته في وحشته وسلوته وعزاءه حين يخلوا الى نفسه وحين يرخي الليل سدوله وتسود الكون الطمأنينة والسكينة والهدوء لكن زملاء صاحبنا توسلوا اليه ان يمتنع عن التدخين فكان لهم ماارادوا اذ عمل صاحبنا بنصحهم الا انه كان يعود فيدخن على فترات متقطعة ولكنه تغلب على تلك العادة عندما حكم العقل والارادة في مضار التدخين وفيما ينتج عنه من عواقب وخيمة وكانت عادة التدخين تحمل صاحبنا ما لا طاقة له به لكن كان لا بد مما ليس منه بد :

وكثيراً ما كان صاحبنا يغادر غرفته بعد الساعة التاسعة مساء حيث كان يستقل الحافلة الكهربائية ويبقى آخذاً مكانه فيها وهي ذاهبة آئبة حتى تعلن الساعة الثانية عشر عند ما ينتصف الليل . وكان في بعض الاحيان يقضي معظم الليل على شاطىء البحر حيث كان يطربه خرير المياه الذي كان يحاكي انغام الموسيقى الشجية

وحيث كانت امواج البحر الصاخبة تطغي على الرمال اللؤلؤية . وتتحطم تحت اقدام الصخور الصماء . وكان صاحبنا غريباً عن الاهل والوطن فعانى من الضنك والضيق ولاقى من ضروب البؤس والشقاء وأصناف الالم والعذاب ما لا قاه لولا ان قيض الله له رجلاً من مواطنيه طيب النفس كبير القلب دمث الخلق اعانه على تذليل ما أعترضه من الصعاب والعقبات وكان ذلك الرجل قد حط في الخمسين ولم يترك ولداً ولم يتخذ زوجاً وكان موظفاً في هيئة تدعى الهيئة العربية لفلسطين .

وذات صباح قدر لصاحبنا ان يتعرف الى فتاة عفيفة أو قدر لها ان تتعرف اليه وبعد حديث لا يدري صاحبنا أطال ذلك الحديث أم قصر . قدمت الفتاة نفسها لخدمة صاحبنا ووعدته ان تحضر كلما سنحت لها الفرص لتقرأ له ما يجب ان يقرأه من كتب الادب والفلسفة والاجتماع وما شاء ان يطلع عليه من مقالات سياسية واقتصادية . فبرت الفتاة بوعدها ووعد الحر دين عليه ، لكن ألسنة الناس لم تلبث ان لاكت صاحبنا وزميلته حتى قال نفر من الناس انها تحبه ويحبها . وقال آخرون « يالله فتاة في دور المراهقة تجالس شاباً في ريعان الصبا » ؟ حقاً ان هذا لغريب وبعيد عن المألوف ومخالف للعادات والتقاليد والشرائع والحق وهو احق ان يقال ان اجتماع ذوي النفوس الرفيعة والاخلاق السامية والخصال الحميدة من بنات حواء وأبناء آدم لا يخالف الا التقاليد العمياء والعادات الرجعية الرثة البالية ولا ينافي الا الشرائع التي أفسدها البشر وشوهوها وسخروها لمنافعهم واغراضهم الدنيوية .

ولما علمت الفتاة بما قيل وبما يقال عنها تأثرت كثيراً واعتذرت لصاحبنا وانقطعت عن زيارته وتخلت عن معونته في الدرس والمطالعه فأسف صاحبنا وشكر لزميلته ما اسدت اليه من اياد بيضاء وخدمات جلى .

وما هي الا اسابيع قليلة وقليلة جداً حتى نزل بجوار صاحبنا أسرة من الاسر الفلسطينية الكريمة كانت قد نزحت من بيت المقدس يوم ان شتت الشعب الفلسطيني هنا وهناك على اثر مهزلة مثلت على مسرح بلاده ويوم ان سلمت الدول الديمقراطية او قل الدول التي تدعي الديمقراطية الديار المقدسة لقمة سائغة لشرذمة من الصهاينة ، ويوم ان اضاف العرب لصفحات تاريخهم المجيد الناصعة البياض صفحات قاتمة سوداء ويوم ان اغتصبت فلسطين عنوة من اهلها وديست كرامة العرب اوقل يوم ان داس العرب كرامتهم هم انفسهم ويوم ان باعوا ذممهم وضمائرهم بثمن بخس من حطام الدنيا لا يغني عنهم يوم الحشر شيئاً يوم لاينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » .

فاحبت تلك الاسرة الكريمة صاحبنا وأحبها هو وأنزله كل فرد منها من نفسه منزلة الروح من الجسد وانزل هو صغار الاسرة وكبارها من نفسه منزلة الحبة من الجنان . غير ان الحياة لا تخلو من المحبة والبغضاء والتعاسة والشقاء ، والرغد والكدر والصفاء والجفاء . وشاءت الاقدار ان يقع بين صاحبنا وبين احد افراد تلك الاسرة الكريمة سوء تفاهم كاد يفصم عرى الصداقة الطيبة والمحبة الطاهرة المتبادلة التي كانت قد تأصلت بين صاحبنا وبين

جميع افراد تلك الاسرة وكاد ينغص عليه عيشه وعلى افراد الاسرة عيشهم ولكن سرعان مازال عند ما ساس صاحبنا الامر وتدبره بالحكمة واللين والتسامح وهو يرى ان عتاب الصديق خير من فقده وهو يقول مع الشاعر :

اذا ذهب العتاب فليس ود
ويبقى الود ما بقي العتـــاب

# الفصل الثامن

# ضحية التعصب الاعمى

•

كانت جولييت تعمل في الفرع الثقافي في احدى المفوضيات في بيروت عام ثمانية واربعين وتسعمائة والف م . وكانت حينذاك في الثانية والعشرين من سنها على حد قولها واكبر الظن وبعض الظن انهم انها كانت في السابعة والعشرين من سنها او تزيد . وكانـــت تتمتع بجانب وافر من الجمال الخلقي والجسدي وهي كمعظم فتيات عصرنا الحاضر ذات غنج ودلال . خفيفة الظل رشيقة الروح ، لطيفة

المعشر أودعها الله عز وجل جاذبية مغناطيسية وابتسامة سحرية تقصم ظهور اشد جبابرة الارض صلابة وقوة وتخلب عقول ذوي اللهى وتبهر ألباب ذوي الالباب . وكانت جولييت حائزة على شهادة « الانترميدت » التي احرزتها من احد معاهد الولايات المتحدة الاميركية عام ستة واربعين وتسعمائة والف م. على ماتقول وشاءت التقادير ان تكون جولييت فتاة مولدة يرجع نسبها الى احدى الاسر الارمنية اي انها كانت في الاصل ارمنية اميركية المولد والمنشأ تتكلم اللغة الانجليزية بطلاقة لانها كانت لغتها الاصلية وكانت لا تلم بشيء من لغتها . اللغة الارمنية وكانت تلم بعض الالمام باللغة الفرنسية .

وكان الدهر قد عض جولييت بنابه العطبه وظلها بكلكله . فعانت من متاعب الحياة ومشاقها ما عانته وجرعتها صروف الدهر صنوف المرارة والالآم والمهانة والذل مالا يصبر على تحمله احدولا طاقة لسواهابه . وروي لنا صاحبنا قصتها موجزة كما روتها هي له قال :

« روت لي جولييت انها ولدت في مدينة « ووترتاون » في الولايات المتحدة الاميركية عام خمسة وعشرين وتسعمائة والف م. ثم قال : انها روت لي ان والدها كان أقرب الى الفقر منه الى الغنى وانه توفي على أثر نوبة قلبية أنتابته عام خمسة وثلاثين

وتسعمائة والف م . ولم يخلف ولداً سوى جولييت » . ثم قال صاحبنا :

« ان ام جولييت هي التي تولت تربيتها والانفاق عليها وعلى تعليمها بعد ان طوت الحرساء جثمان والدها . وان ام جولييت : كانت تعمل جادة في احدى مكتبات مدينتها «ووترتاون» لتكسب ما تسد به حاجتها وحاجة فلذة كبدها » . ثم قال صاحبنا :

« ان ام جولييت أصيبت سنة احدى واربعين وتسعمائة والف م بوباء التيفوئيد وظلت طريحة الفراش مائة يوم حتى عاجلتها ساعة المنون فقضت نحبها بعد ظهيرة اليوم الحادي عشر من شهر كانون الاول عام واحد واربعين وتسعمائة والف م ، وتركت وراءها ابنتها جولييت تصارع الحياة والحياة تصارعها طيلة أربعة أعوام . لاقت جولييت خلالها من ضروب الضنك والضيق وأنواع النكد والكدر مالاقته الى ان قيض الله لها ان تغادر مسقط رأسها مدينة « ووترتاون » الى لبنان لتعمل كسكرتيرة في الفرع الثقافي باحدى المفوضيات في مدينة بيروت » .

ومنذ وطئت قدما صاحبنا ارض لبنان الجميل شاءت الاقدار وحكم عليه الزمان ان يتعرف الى جولييت او اقل حكم الزمان على جولييت وساقها القضاء والقدر الى ان تلتقي بصاحبنا وتتعرف اليه بعد ظهيرة يوم من ايام الآحاد عام ثمانية واربعين وتسعمائة والف م يوم ان كان يتنزه في حديقة الصنائع في بيروت . وبعد ان عرفت

جولييت صاحبنا وعرفها هو ايضاً شرعت جولييت تحدث صاحبنا عمّا في بطون التاريخ والفلسفة والادب من امجاد وآثار رفيعة خلقها عظماء المكفوفين من السلف وراحت تقص عليه قصة الشاعر اليوناني المكفوف هوميروس وتحدثه عن ألياذته وعن ملتون الشاعر الانجليزي المكفوف وعن فردوسه المفقود وعن الشاعر العربي الاكمة المخضرم بشّار بن برد وعن الفيلسوف المكفوف أبي العلاء المعري ، وعن هيلين كار وعن الدكتور طه حسين. وبعد ان تحدث صاحبنا وجولييت زمناً طويلاً . والتقيا مرات ومرات في اماكن مختلفة فاجأت جولييت صاحبنا بفاجأة لم يكن يحلم بها ولا خطرت له ببال . وكانت هذه المفاجأة يوم ان زار صديقنا جولييت في مكتبها اذ قالت له بعد ان تناولا شيئاً من الشوكولاته .

« كنت قد اتخذتك صديقاً لي منذ شهور غير انني لم اكتف بهذه الصداقة ولن تقف مطامعي بشخصك عند هذا الحد »

فقال صاحبنا :

« ماذا تعنين بقولك هذا ياجولييت افصحي عما في ضميرك ولا تبقي شيئاً غامضاً وكوني صريحة فصديقك يحب الصراحة »

فنهضت جولييت من مقعدها بتثاقل وبطء وتأبطت ذراع صاحبنا وسارت الى جانبه على استحياء ، وقالت : له بتردد وتلعثم وحمرة الخجل تعلو محياها .

« ان الحب اجمل واقدس شيء في الوجود وان الحياة جميلة واجمل فترة فيها هي تلك الفترة التي يقضيها الشاب بين ذراعي زوجة مخلصة تحبه ويحبها وتشاركه في افراحه واتراحه »

فافتر ثغر صاحبنا عن ابتسامة ساخرة وقال :

« ماذا تعنين بسياقة هذا الحديث يا جولييت صرحي بمكنونات صدرك فصديقك لا يفهم الرموز وغوامض الامور »

فتنهدت جولييت وتأوهت من اعماق صدرها وقالت :

« الحقيقة انني احبك وان حبك قد تبوأ عرش قلبي وان نار حبك تلتهب بين ضلوعي وتلتهم احشائي فهل تحبني كما احبك ؟ وهل تبادلني حباً بحب ؟ »

وما كادت جولييت تتم هذه العبارة حتى غاص صاحبنا في خضم من الافكار والهواجس وتراءى له انه في عالم غير هذا العالم لكنه بعد لحظات استعاد نشاطه وافاق من سكرته وقال :

« يبدو لي يا جولييت انك تحبينني وانك تريدين ان تقتربي بي لكنك نصرانية وانا مسلم ولا اظن ان والدي سيوافقان على اقترانى بك »

فقالت جولييت :

« انك تدين بالاسلام والاسلام دين لا يحرم الزواج من فتاة كتابية او نصرانية ونحن النصارى من اهل الكتاب ودينكم يقر هذه الحقيقة » ثم قالت :

« لا شأن لوالديك في امر زواجك فأنت الذي ستتحمل تبعات الزواج لا امك ولا ابوك ولا عمك ولا خالك »

فرضخ صاحبنا لرغبة صديقته جولييت وكتب لوالديه في هذا الامر لكنه حدث ما لم يكن بالحسبان اذ انقطعت عنه مراسلات والديه مدة ستة اشهر وغضبا عليه غضباً شديداً وحذراه من الزواج من تلك الفتاة لكن صاحبنا اصر على الزواج وبالرغم من تحذير والديه واخذت صديقة صاحبنا تعد عدة الزواج وتهيء لصاحبنا سبيل السفر الى الولايات المتحدة الاميركية فطلبت اليه ان يحضر جواز سفر مع العلم بأن صاحبنا لم يكن قد حصل على جواز سفر منذ حداثة سنه فطلبت اليه ان يتأردن لكن صاحبنا رفض رفضاً باتاً طلب صديقته جولييت فقالت له :

« ان كنت لا تود ان تتأردن فتاردن ريثما تصل الى الولات المتحدة الاميركية وهناك تتامرك »

وكاد صاحبنا يستجيب لرغبات صديقته لولا ان تذكر والديه وما ورد في القرآن الكريم بحقهما « وقضى ربك ان لا تعبدوا إلا اياه وبالوالدين احساناً اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً » لكن حواء التي هي خير كلها وشر كلها تأبى الا ان تكون اساس البلاء وحواء قادرة على ان تصرف الانسان البسيط عن اهدافه كما صرفت

امنا حواء الاولى ابانا دم الاول عن طاعة ربه وكانت النتيجة طرده من الجنة . وكان لا مندوحة لصاحبنا من ان يطيع صديقته جولييت طاعة عمياء وان يتم خطوبته عليها بأغراء منها في صبيحة اليوم الاول من شهر كانون الثاني عام خمسين وتسعمائة والف م. وشاءت الصدف ان يكون ذلك اليوم هو يوم الاحد ويوم عيد ميلاد الرسول الأعظم محمد ﷺ وعيد رأس السنة الميلادية ولكن تلك الخطبة لاقت معارضة شديدة فعالة من قبل والديّ صاحبنا وذويه ، وراح صاحبنا ، يقنع اهله وذويه ان زواجه من تلك الفتاة لا يضيره شيئاً ولا دخل لهم فيه الا ان والدي صاحبنا تألبا عليه وفسخا خطبته في اواخر شهر ايلول عام خمسين وتسعمائة والف م. فتألمت صديقة صاحبنا جولييت أيما تألم لهذه المصيبة التي حلت بها واختطفت من بين احضانها حبيب قلبها الذي برت به واخلصت له وعاهدته على الاستمرار في حبه عندئذ ادركت جولييت ان احلامها تحطمت أو سوف تتحطم على صخور العادات الرجعية والتقاليد البالية فدبجت لصاحبنا رسالة باللغة الانجليزية اودعتها مكنونات صدرها وخبايا نفسها فقالت :

« ان قلب حبيبتك جولييت مفعم بحبك وهو يزخر بأرق العواطف وأسماها نحو شخصك الكريم . لقد كان قلبي يخفق لرؤيتك وها هو الآن في خفقان دائم وكيف لا يخفق قلب حبيبتك وقد طبعت صورتك الملائكية على صفحاته وانني لأراك في كل

وقت وروحي ترافقك في كل حين وان طيفك لا يغـادرني في ليلي ولا في نهاري وهو معي أينما كنت وحيثما حللت .

فهل لي ان اعلم ان قلبك يبادلني هذا الشعور النبيل السامي ؟ فان كان ذلك فسأكون اسعد مخلوقة على وجه هذه البسيطة .

ثم قالت «جولييت في رسالتها :

« ان القلوب الصادقة النبيلة تتقارب بل واكثر من ذلك فانها تتصادق وتتحاب وتتعانق .

ولكن ان قدر لقلبها ان لا يبادله المودة من شغلت بـه حتى عن نفسها فستكون سعيدة ايضاً لان جل ما تطلبـه كما ورد في رسالتها ان يكون صاحبنا سعيداً في حياته» .ثم قالت جولييت

« انها ليست بالانانية التي تؤثر سعادتها عـلى سعادة صاحبنـا وهنائه وانها ستبذل حياتها في سبيل سعادته وهنائه . » ثم قالت

انها اليوم في اشد الحاجة الى عطف صاحبنا وحنانه ولا تظن انه يضن بهما عليها وألحت جولييت على صاحبنا ان يبادلها بعض ما وقفت عليه قلبها نحوه ثم قالت ان ذلك يكفي لان يضاعف نشاطها ويحقق سعادتها وان يعوضها عطف الامومة والابوة اللذين حرمت منهما منذ نعومة اظفارها .وانهت جولييت رسالتها بتفاؤلهـا في

عودة صاحبنا الى صوابه . وقالت :

« انك يا صديقي انيسي في الدارين دار الدنيا ودار الآخرة »

وما كاد صاحبنا يتم قراءة رسالة صديقته جولييت حتى استولى عليه الذهول ورأى نفسه في موقف حرج لانه ارغم على مقابلة الاحسان بالاساءة والمحبة بالبغضاء او قل تكلف البغضاء . وبعد ان خيم عليه السكون والصمت الرهيب قادته افكاره الى ان يكتب لصديقته رسالة يودعها فيها الوداع الاخير ويبين لها الاسباب التي حالت بينه وبين ان تصبح شريكة حياته فقال في رسالته:

« ان فراقك يا جولييت اثار في نفسي الشجون واثخن قلبي المضطرم بحبك بالجراح والالآم وجلب لي كثرة النواح وحبّب الي العزلة والانفراد . »

ثم قال صاحبنا :

« انه احب جولييت منذ ثلاثة اعوام ، فبادلته حباً بحب . وكان حبهما عفيفاً طاهراً لا يشوهه شيء وكانا يهدفان من وراء حبهما الى السعادة والهناء بعد ان عشق قلب صاحبنا قلب صديقته جولييت وألفت روحه روحها ورأى صاحبنا ان الفضيلة مجسمة في شخص جولييت . ثم قال صاحبنا في رسالته :

« ان جولييت فتاة نبيلة مرهفة الاحساس رقيقة الشعور سليمة الذوق جميلة الخلق والخلق » وقال :

« ان طيفها لا يغادره وان طيفه لا يغادرها وان كليهما محب

للآخر يبذل حياته في سبيل سعادة محبوبه ويضحي بنفسه وبكل ثمين من اجله » ثم قال صاحبنا :

« ان في قلبه معبداً نحت فيه تمثال للجمال وان فيه هيكلاً تقام فيه صلوات الحب . »

وختم صاحبنا رسالته بقوله .

لقد دعتني ارادة أهلي وذوي . الى فراقك يا جولييت فشاء القضاء ان تنفصم عرى المودة التي كانت تربط بين قلبينا فانفصمت تلك الصداقة التي كانت تجمع بيننا فامتعضت لهذا الدعاء واهتز قلبي لشدة صداه ولكن لا بد من الخضوع له واستجابتي الى ما يحبه ويرضاه . ثم قال صاحبنا في رسالته .

« لا تحنقي علي يا صديقتي اذا ما ودعتك اليوم الوداع الاخير ولا تسخطي علي لاني لبيت نداء من اوصاني الله بهما خيراً وعدم معصيتهما وتركتك تلبية لرغبتهما اعذريني يا صديقتي جولييت فان الذنب ليس ذنبي ولست انا الجاني بل المجنى عليه .

**« هذا جناه أبي وما جنيت على احد »**

وداعاً يا صديقتي جولييت . وداعاً يا آية في الجمال والابداع . ويا مثالاً للوفاء والاخلاص والنبل والفضيلة .

وداعاً ايتها الفتاة المثالية . وداعاً لا لقاء بعده .

# الفصل التاسع

# سر النجاح

•

كان من المتعذر على صاحبنا دخول مصر العزيزة لانه فلسطيني فقط . وكان من المتعذر على كل فلسطيني بعد ان اغتصب وطنه عنوة وبعد ان اخرج من دياره مكرهاً وظلماً وعدواناً ان ينتقل من قطر الى قطر . حتى ولو اراد الانتقال الى قطر من اقطار وطنه العربي لكي لا يصبح عالة على ابناء وطنه وبني امته وجنسه في ذلك القطر . وكانت هذه الصعاب كافية لان تخفف من همة صاحبنا وعزيمته وان تجعل من تفاؤله الخصب تشاؤماً مجدباً وان تقلب آماله واحلامه الى يأس وقنوط وكاد صاحبنا ان يستسلم لليأس ، وان يذعن الى الفشل وان يقنط من رحمة الله . لولا انه كان يؤمن ان اكثر الناس نجاحاً اكثرهم استعداداً للفشل وتحمل صدماته وقساوته . وكان صاحبنا

حسن التقدير لأعماله واعمال غيره وكان جاداً في عمله مواظباً على تحقيق رغبته واتقان عمله . وكان صاحبنا بالرغم مما صادفه من الصعاب والعقبات دائباً على عمله لايثنيه عنه شيء . وكان ذا أمل دائم وكبير وكان امله لا يخبو لانه كان يتفجر من نبع دفين في نفسه السليمة . وكان صاحبنا لا يتأثر بالظروف المحيطة به ولا بمدى نجاحه او فشله في اي عمل من الاعمال . وكان صاحبنا يوقن الا مندوحة لطالب النجاح الحقيقي من المساهمة في سبيل خدمة الآخرين غير ناظر الى اعترافهم بالجميل او نكرانهم له مساهمة فعالة صادقة . وكان صاحبنا مستهيناً بالفشل لا يعد من تدفعه قوة التنافس الى الامام في زمرة الناجحين . وكان يعد في زمرة الناجحين أولئك الذين يسخرون من الفشل ويعرفون كيف ينهضون كلما سقطوا ليستأنفوا السير في طريقهم بقوة ونشاط . ولو سقطوا عشرات المرات . ولولا ان كان صاحبنا كذلك لترك الحياة المدرسية وغادر ميدان العلم ولقذف بنفسه الى مدرسة الحياة وراح يكدح ويكد في ميدانها العملي .

كانت جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت قد اغلقت القسم الانجليزي الذي كانت قد استحدثته في الكلية منذ عهد قريب وما لبثت ان افتتحت القسم الابتدائي منه من جديد وكان لا مندوحة لصاحبنا من الالتحاق بقسم البكالوريا بكلية المقاصد الاسلامية . وكانت اللغات التي تدرس في كلية المقاصد اللغة العربية والفرنسية والانجليزية وكانت اللغة العربية أقوى هذه اللغات واما اللغة الانجليزية فكانت اضعفها فاضطر صاحبنا الى ان يلتحق

بمدرسة «هدلي» للمكفوفين بالمراسلة في الولايات المتحدة الاميركية وكان يدرس فيها اللغة الانجليزية بالخط النافر على طريقة ( برايل ) وكان يدرس المواد الاخرى باللغة العربية في نفس الكلية . وكانت قد اعترضت صاحبنا اثناء دراسته صعاب شديدة وعقبات كأداء لقلة الذين كانوا يتبرعون لمعاونته ويضحون بأوقاتهم الثمينة في القراءة له ولعدم وجود كتب مطبوعة بالخط النافر على طريقة « برايل » باللغة العربية . وكان يشد ازر صاحبنا في دراسته بعض اصدقائه وبعض زملائه الذين التحقوا بالقسم التجاري في كلية المقاصد الاسلامية اضطراراً او اختياراً . وكان من المحال ان يدرس صاحبنا العلوم الطبيعية والرياضية وان يجاري اخوانه فيها وكان يرى الافائدة له من دراستها . وكان استاذ الادب العربي والفلسفة الاسلامية في كلية المقاصد الاسلامية قد ابى ان يصحح لصاحبنا، بادىء ذي بدء، الموضوعات الادبية التي كان يعالجها صاحبنا هو وسائر زملائه وقد اعاد الاستاذ بعض الموضوعات دون ان يصححها او يطلع عليها ، لكنه ما لبث ان عاد الى جادة الصواب وعامل صاحبنا كما كان يعامل زملاءه وكان ذلك بايعاز من عميد الكلية وكانت علامات صاحبنا ادنى علامات في صفه وكانت اقل وأقل مما يستحق وخاصة في الادب والفلسفة والتاريخ لانه كان يؤدي الامتحانات في هذه المواضيع الثلاثة شفوياً ولا يمكن ان تعطي الامتحانات الشفوية فكرة عن غزارة مادة الطالب ومقدرته فيها وفيما تعلم . ولا ينسى للممتحن ان ينصف الممتحن في هذه الحال .

وفي أوائل شهر حزيران عام خمسين وتسعمائة والـــف م . فاز صاحبنا بالقسم الاول من شهادة البكالوريا . الفـــرع الادبي بدرجة جيدة فدبج رسالة الى عميد الجامعة السورية ضمنهـــا طلب الالتحاق بالجامعة وهو يردد في نفسه قول الشاعر :

لاتيأسن اذا كبوتم مرة . ان النجاح حليف كل مثابر

وشاءت الصدف ان يكون عميد الجامعة السورية حينـــذاك نائب رئيس الجامعة الاميركية في بيروت سابقاً لكن كان نصيب طلب صاحبنا الفشل وكان رد عميد الجامعة عليه رداً سلبياً فعـــاد صاحبنا وتابع دراسته في كلية المقاصد الاسلامية فأحرز القسم الثاني من شهادة البكالوريا الفرع الفلسفي بدرجة جيـــدة في أواخر شهر حزيران عام واحد وخمسين وتسعمائة والف م .

# الفصل العاشر

# الصدمة الكبرى

•

اخذت صاحبنا نشوة الانتصار عندما ظهر على منصة الاحتفال بتوزيع الشهادات في باحة كلية المقاصد الاسلامية في بيروت وهو يرتدي بذلته البيضاء ويختال بين زملائه وعلامات الزهو والكبرياء ظاهرة على محياه . وكان صاحبنا في تلك الآونة يظن انه وصل الى ما لم يصل اليه سواه واصبح على جانب وافر من العلم والثقافة .. ففادر صاحبنا مكانه على المنصة حاملا الشهادة بيمينه والموسيقى تصدح بالانغام الشجية التي تشنف الآذان وتصقل النفوس .

وفي تلك الفترة كان صاحبنا يفكر في مصيره ويهيء نفسه لمرحلة التخصص . وما ان انفلق فجر تلك الليلة حتى اعد صاحبنا طلباً الى وزارة المعارف المصرية يطلب فيه الانتساب الى كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول .

وفي ٦ ايلول سنة ١٩٥١ تسلم صاحبنا كتاباً من وزارة المعارف المصرية جاء فيه : يشترط الحصول على نسخة طبق الاصل عن الشهادة مصدقة من قبل من صدرت عنهم، ومن قبل وزارة التربية الوطنية اللبنانية ووزارة الخارجية اللبنانية والمفوضية الملكية المصرية في بيروت . على ان ترسل هذه الشهادة بعد التصديق عليها بواسطة حضرة الملحق الثقافي بالمفوضية الملكية المصرية في دمشق : »

ولما تسلم صاحبنا هذا الكتاب هرول الى حضرة مدير كلية المقاصد الخيرية الاسلامية وناوله الكتاب . ولما اطلع حضرة المدير على الكتاب قال صاحبنا : « انهم يطلبون المستحيل ولم يسبق لهم ان طلبوا مثل هذا الطلب من احد سواك . » فعاد صاحبنا وكتب الى حضرة الملحق الثقافي بالمفوضية الملكية المصرية بدمشق يطلب منه ايضاحات واسعة حول الموضوع. وبعد بضعة ايام حمل ساعي البريد لصاحبنا كتاباً من حضرة الملحق الثقافي بالمفوضية الملكية المصرية جاء فيه : « على طالب الانتساب الى الجامعات المصرية الحصول على نسخة طبق الاصل عن الشهادة التي يحملها مصدقة ممن صدرت عنهم الشهادة ومن قبل الدوائر والمراجع المختصة للتأكد من صحة صدور الشهادة بطرق قانونية » . فحمل صاحبنا الكتاب وذهب الى كلية المقاصد الخيرية الاسلامية واطلع

حضرة المدير عليه . فقال المدير لصاحبنا : « لم يسبق لهم ان طلبوا هذا الطلب من احد سواك ويبدو ان شهادتنا اصبحت غير مقبولة عندهم . »

وفي صبيحة اليوم التالي غادر صاحبنا بيروت الى دمشق فقابل حضرة الملحق الثقافي للمفوضية المصرية هناك وسأله فيما لو كانت شهادة كلية المقاصد في بيروت تجيز لحاملها الانتساب الى المعاهد المصرية أم لا . فأجاب حضرة الملحق الثقافي : « ان شهادة كلية المقاصد الاسلامية في بيروت معترف بها رسمياً من قبل الحكومة وهي تجيز لحاملها الانتساب للجامعات المصرية . »

فأطرق صاحبنا قليلا ورأى ان يتريث ويبقى في دمشق لعله يتمكن من الانتساب الى كلية الحقوق بالجامعة السورية . وفي صبيحة اليوم التالي ذهب ليقابل عميد الجامعة السورية الا ان العميد رفض مقابلته ، وبعد جهد جهيد ، استطاع ان يقابل نائب العميد وان يعرض عليه طلبه . فأجاب نائب العميد : « ان الجامعة السوريه تتمشى على قواعد عامة لا يمكن استثناؤها . ولم تعد الجامعة لتدريس العميان . » فقال صاحبنا : « ليس في الشرق العربي جامعة لتدريس العميان . ولهذا يجب ان تسهل سبل الدراسة للعميان حتى يصبح لهم جامعة خاصة بهم . »

ولما اغلقت الجامعة السورية ابوابهـا في وجه صاحبنا : طرق ابواب وزارة المعارف السورية علها تجد لمعضلته حلاً الا انها حذت

حذو الجامعة واوصدت ابوابها في وجهه . فعاد الى بيروت وطلب من المفوضيه المصرية ان تمنحه تأشيرة سفر ليتمكن من دخـــول القطر المصري ومن الانتساب الى احدى جامعاته الا ان الموظف المسؤول اجابه: « ان هذا غير ممكن ولو كنت غـــير فلسطيني لامكن ذلك» فحار صاحبنا في امره . واعترته فترة من الذهول والوجوم . وبينما كان صاحبنا يفكر في مصيره قادته افـكاره الى ان يكتب الى رئيس الهيئة العربية في القاهرة كتاباً عله يعينه على الانتساب الى كلية اللغة العربية بالجامع الازهـــر . الا ان مساعي صاحبنا باءت بالفشل وذهبت آماله ادراج الرياح . فـرأى صاحبنا ان يطرق باب العمل فتوجه الى الاردن . ففشل في طلبه .

فضاق صاحبنا ذرعاً بالحياة في الاردن الذي يئن تحت نـــير الاستعمار البريطاني ويتخبط في واقع اقتصادي سيء وقد بلـــغ كبت حرية الفكر هناك اقصى حدوده . وخيل لصاحبنـــا ان الحكومة في الاردن ميتة . والشعب يحتضر فترك صاحبنـا الاردن وعاد الى لبنان وراح يبحث عن عمل في بيروت يسد بـــه حاجته . وهنا لم يوفق في مطلبه ايضاً .

وبعد ان ضاعت سنة دراسية كاملة من حياة صاحبنا سدى ، تسلم من فضيلة شيخ جامع الازهر كتاباً يقول فيه : « يسمح لحامل هذه الشهادة بالدخول الى القطر المصري لينتسب الى معهدنا، على ان يكون قادراً على الانفاق على نفسه طيلة مدة اقامته في

القاهرة. »وعلى الفور ذهب صاحبنا الى المفوضية المصرية في بيروت وعبأ استمارة الدخول الى القطر المصري . وارسلت المفوضية المصرية الاستمارة الى وزارة الداخلية المصرية .

وفي أوائل شهر ايلول عام ١٩٥٢ كتب صاحبنا الى نائب رئيس الهيئة العربية في القاهرة وذكر له تاريخ ورقم الاستمارة ليبحث عنها في وزارة الداخلية ويرسل لصاحبنا الاذن بالدخول الى مصر . الا ان نائب رئيس الهيئة العربية ادعى ان الاستمارة مفقودة من وزارة الداخلية .

وبينما كان صاحبنا يواجه الصعاب الشديدة استطاع بفضل ما أوتيه من قوة الارادة وعدم المبالاة بالفشل ان يلتحق بفرع الآداب العربية وتاريخ حضارة شعوب الشرق الادنى في معهد الاداب الشرقية بجامعة القديس يوسف للآباء اليسوعيين في بيروت وامن لصاحبنا حياته بعض العناصر الطيبة من النساء والرجال في بيروت .

وتمكنت احدى صديقات صاحبنا من حمل طالبات كلية بيروت الاميركية للبنات على مساعدة صاحبنا . وواحت طالبات الكلية يتوافدن على مكتبة يافث التذكارية بجامعة بيروت الاميركية ليقرأن لصاحبنا ما شاء من كتب كلما سنحت لهن الفرص . الا ان استاذة اللغة العربية بكلية بيروت الاميركية

البنات رأت ان هذه الطريقة غير مجدية ، وارتأت ان يوضع تحت تصرف صاحبنا مساعدة خاصة تقرأ له ما شاء من كتب وصحف. وكان لاستاذة اللغة العربية بالكلية ما أرادت . وكثيراً ما كانت تصرف اوقاتها الثمينة وهي تفتش لصاحبنا على ما يريد من مصادر ومراجع .

# الفصل الحادي عشر

# ثورة جنونية

•

كان صاحبنا لما انتهى من مرحلة الدراسة الثانوية ، قد عول على متابعة التحصيل الجامعي العالي ، فطرق ابواب معاهد العلم في جميع الاقطار العربية ، فأوصدت هذه المعاهد ابوابها في وجهه. ولما اخفق صاحبنا في مساعيه ولم يجد سبيلا الى متابعة الدراسة الجامعية ، عاد فطرق ابواب العمل في جميع انحاء الوطن العربي فأغلقت ابواب العمل في وجهه ، لا لعدم كفاءته وأهليته ولكن لأنانية ، من بأيديهم زمام الأمر في هذه البلاد وعدم تقديرهم لمواهب الانسان وللون الشاسع الذي يفصل ما بينهم وبين مفهوم الانسانية الحقيقي ، ولأنشغالهم بصالحهم الشخصية وحب الذات عن مصالح المواطنين .

وكم من كفء قطعت عليه الطريق ووضعت امامه العراقيل وسدت سبل الحياة الكريمة في وجهه . وكم من أبله فتحت له سبل الحياة وذللت له كل صعوبة قبل ان يرتد اليه طرفه .

ولو كان صاحبنا من محاسيب بعض الفئات الاقطاعية والطبقات الحاكمة .لما لاقى في حياته من ضروب الضنك والضيق مالاقاه ولما عان من الآلام ماعاناه . ولكن النظم الاجتماعية الفاسدة السائدة في بلادنا والتي كان صاحبنا وما يزال يتخبط في دياجيرها قطعت عليه الطريق ووضعت امامه العراقيل الشائكة وأوصدت في وجهه ابواب معاهد العلم ودوائر العمل فلم يتمكن من البقاء في حياة المدرسة. ولم يستطع الانخراط في مدرسة الحياة .فوقف صاحبنا حائراً مذهولاً لا يملك من ناصية امره شيئاً واصبح في حالة هذيان لا يدري ما عساه ان يفعل . وأخذ ينظر الى الحياة بنظار رهيب اسود ولا يرى فيها إلا غمامة سوداء حالكة مظلمة . وماذا عساه ان يفعل وهو الذي لا حول له ولا طول ، وقد باتت اشباح الجوع والبرد والمرض تهدده وتهدد اسرته ، غير النقمة على الانظمة الاجتماعية الفاسده التي يتخبط فيها خبط عشواء وماذا تفيد النقمة على هذه الانظمة وهو لا يستطيع تغييرها بمفرده ولم يجد الى اصلاحها سبيلا .

وهنا فقد صاحبنا ارادته وعزيمته ولبه واضطربت اعصابه واصبح في حالة اللاّوعي فقادته افكاره الى ان يتخلص من الحياة وان يتهرب من مسؤولياتها الجسام . فابتاع من بعض الصيدليات والحوانيت كمية كبيرة من حبوب الاسبرين .وابتلعها بغية القضاء على نفسه وكانت هذه الكمية كافية للقضاء عليه ، الا ان رفاق صاحبنا الذين كانوا يزورونه على فترات متقطعة شعروا بما

عزم عليه صاحبنا . فأحضروا له سيارة الاسعاف حيث نقلته الى مستشفى الرب في بيروت فأجرى له الطبيب الاسعافات اللازمة ورأى ان يمكث صاحبنا في المستشفى مدة من الزمن يسيرة حتى يزول عنه الخطر .

ولما زال الخطر عن صاحبنا غادر المستشفى فوجد قصة انتحاره حديث الناس في المدارس والاندية والمقاهي والشوارع والبيوت والصحف. ولاحظ صاحبنا ان أراء الناس في هذه القصة متضاربة فمن الناس من رأى ان صاحبنا صلب العزيمة قوي الارادة لا يقدم على شيء من هذا القبيل ولا يفرط في نفسه . وان الاشاعات التي دارت حول قصة انتحاره مختلقة ولا أساس لها من الصحة . وكانت ثقة هؤلاء الناس بصاحبنا قوية وهذا ما جعلهم ينفون هذه الاشاعات ولا يصدقون بها مطلقاً .

ومنهم من رأى ان صاحبنا قصد بمحاولة انتحاره مناورة يستدر من ورائها عطف الناس عليه ويستغل الشعور الانساني . في هذا البلد لمصلحته الخاصة . والواقع ان صاحبنا لم يقصد استدرار عطف الناس عليه واستغلال شعورهم الانساني نحوه . وانه كان في هذيان وذهول محطم الأعصاب عند ما عزم على ارتكاب جريمة الانتحار .

ومن الناس من رأى ان صاحبنا عاشق مدله متيم بإحدى الغيد الحسان من بنات حواء ، وان اسباب اقدامه على ارتكاب

جريمة الانتحار اسباب غرامية . والحقيقة ان صاحبنا اكبر من ان يهلك نفسه من اجل صلاته الغرامية ببعض الفتيات وهو الذي يجد ويكدح في سبيل تأمين حياته وان مشاغله وسعيه للوصول الى هدفه الأسمى كافية بإبعاد هذه المزاعم عنه وبالحيلولة بينه وبين الوقوع في حبائل العشق والغرام في مثل هذه الظروف القاسية من حياته .

وأكبر الظن ان صاحبنا أكبر من ان يلقي بنفسه الى هوة التهلكة من اجل النساء . ولا يعقل ان يذهب حياته سدى بين احضان بنات حواء ، وهو الذي يشعر بخطر المسؤوليات الملقاة على عاتقه تجاه نفسه واسرته ووطنه السليب وامته المكبلة بالقيود الاستعمارية الغاشمة . وهو يؤمن ان في عنقه رسالة سامية يسعى الى تأديتها نحو وطنه وأمته ما استطاع الى ذلك سبيلا . وكيف يمكن ان يقضي صاحبنا على شبابه من اجل مشكلة غرامية . وهو الذي يفهم من مفاهيم الحب والجمال ما لا يفهمه سواه .

انتهى الجزء الأول من الكتاب

ويليه الجزء الثاني .

١٩٥٣

# فهرس الكتاب

رقم الصفحة


الفصل الاول « اليوم المجهول : . . . . « « ٩ » »

« « الثاني « البصر المفقود : . . . . « « ١٧ » »

« « الثالث « الطفل الضرير : . . . . « « ٢١ » »

« « الرابع « الى الكتّاب : . . . . « « ٢٧ » »

« « الخامس « من الظلمات الى النور « « ٣٣ » »

« « السادس « الى بلاد الأرز : . . . . « « ٣٩ » »

« « السابع « زهرة في حقل عوسج « « ٤٥ » »

« « الثامن « ضحية التعصب الأعمى « « ٧١ » »

« « التاسع « سر النجاح : . . . . « « ٨١ » »

« « العاشر « الصدمة الكبرى « « ٨٥ » »

« « الحادي عشر « ثورة جنونية « « ٩١ » »

القاضي ،طه محمد
على مسرح الحياة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01045925

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY of BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866

B
K112kA
V.1

General Library

892.78
Q254Ya
v.1
c.1